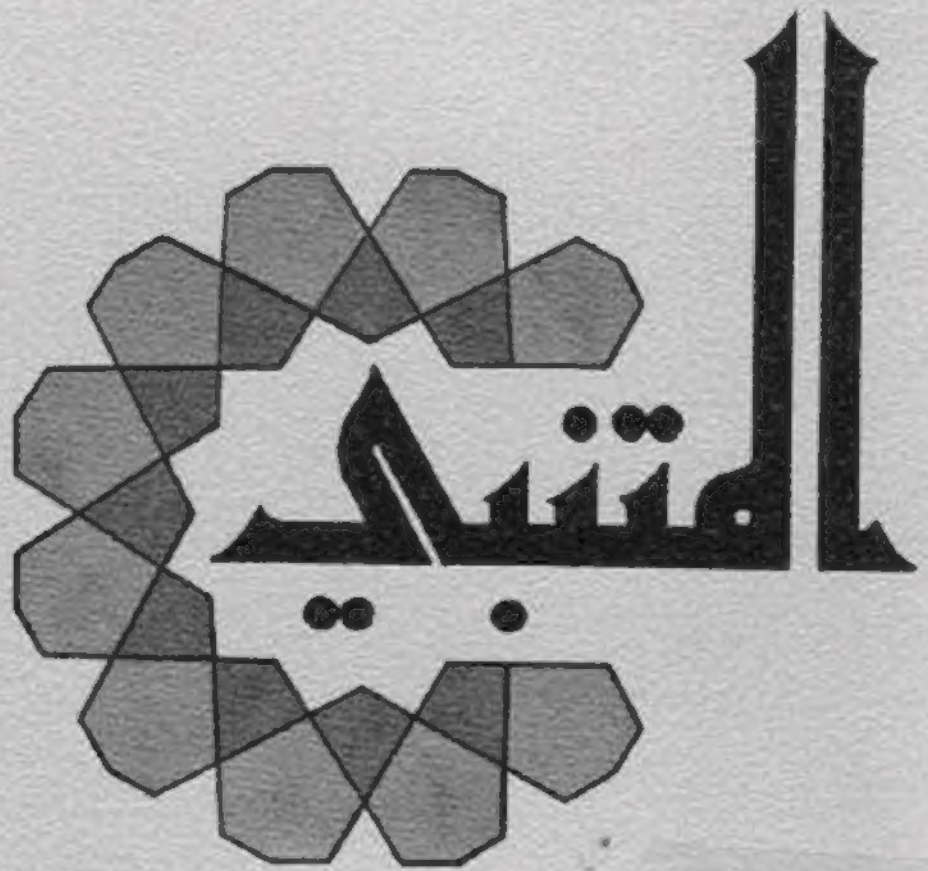


الطبيعة عند المتنبي



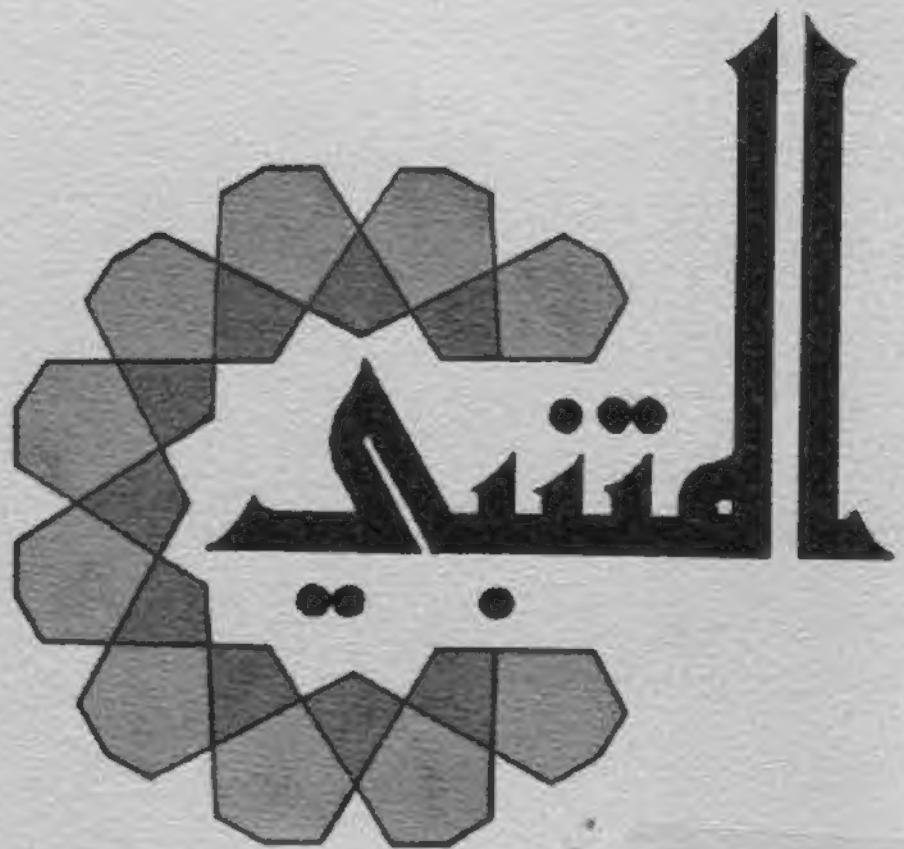
د. عبد الله الطيّب

زورنا في
الفيس بوك

المرتضى
مكتب السودان

www.facebook.com/sh143a

الطبيعة عند المتنبي



د. عبد الله الطيّب

منشورات وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي

بغداد - تشرين الثاني ١٩٧٧

وأحب إلى أن يقال أبو الطيب • وما أريد بقولهم المتنبي أول الامر
 الا النبز والعيب ، فصيحه الاستعمال ، وما كان لشعره من سيورة
 وشهرة له كالحلية ، وذكر ابن خلكان ان بعض المغاربة كانوا يقولون
 (المتنبي) كأنهم يشيرون بذلك الى ما صار للقبه من دلالة على الفطنة
 وكشف ستار طبائع النفوس ، مكان دلالة الأولى على دعوى النبوة •
 هذا ، وقولنا الطبيعة نعني به ظاهر معنى هذا اللفظ ، لانتعمق
 وراء ذلك بشيء والله دره أبي الطيب إذ يقول :

أَبْلَغُ مَا يَبْلَغُ الْمَرَادُ بِهِ الطَّبْعُ
 وَعِنْدَ التَّعَشُّقِ الزَّلُّ

فسن ظاهر معناه صفات الأمكنة والأزمنة من أجواء وفصول
 وشمس وأصيل وقمر وليل ونجوم والحيوان بريه وبحريه
 وجويه ، وزعم الدكتور زكي مبارك رحمه الله في بعض ما كان يناقش
 به الدكتور أحمد أمين رحمه الله أيام الرسالة في سنوات الأربعين أن
 الغزل من باب الطبيعة لأن جمال النساء من مفاتن الطبيعة ذروة
 - ولا يخلو مقاله هذا من صواب باية ما كان كثيراً ما يقع وصف
 الرياض والغيوث في معرض ذكر الطلول ووقفات بكاء العشاق
 وصفات الظعائن الحسان كآيات لبيد :

فَعَلَا قُرُوعٌ الْأَيْهَانِ وَأَطْعَلَتْ

بِالْجَلْبَتَيْنِ فَبَاوُهَا وَنَعَامَهَا

وايات علقمة :

تَسْقَى مَذَائِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا

حَدُّورُهَا مِنْ آيِ الْمَاءِ مَطْشُومٌ

وايات عنبرة :

أَوْ رَوْضَةً انْقَا تَضَّيَّنَ نَبْتُهَا

غَيْثٌ قَلِيلٌ الدُّمْنُ لَيْسَ بِسَلَمٍ

وكان ذو الرمة من الاسلاميين ربما مزج بين اوصاف النساء والطبيعة مزجاً فصار بذلك الى نوع من التصوف . وفي شعره تأمل "وعمل كثير" ويعجبني قوله :

ذَكَرْتُكَ أَنْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنٍ

أَمَامَ الْمُطَايَا تُشْرِيبُهُ وَتُسْنَحُ

من المؤلفات الرمل اذماء حرمة

شُعَاعُ الضُّحَى فِي مَتْنِهَا يَتَوَضَّحُ

وهنا صورة الطبيعة ورمالها وتألق الشعاع على متنها اوضح من صورة المليحة ، وصار ذو الرمة بهذه الصورة الى تجويد ومزج بين الطبيعة والمرأة أقوى في قوله :

بَرَأَقَةُ الْجِيدِ وَاللِّبَاتِ وَاضِحَةٌ

كَأَنَّهَا ظَبْيَةٌ أَقْضَى بِهَا لَبَبُ

بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عِقْدٍ
 عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَسْبَاطُ وَالْهَدَبُ
 صُورَةُ بَرُوزِ الظُّبْيَةِ مِنْ كُثْبَانِ الرَّمْلِ وَاضْوَاءِ الْأَصِيلِ
 وَضُرُوبِ نَبَاتِ الطَّرْفَاءِ وَالشَّجِيرَاتِ ذَاتِ الْوَرَقِ السَّبْطِ ههنا
 بَيِّنَةُ الْأَبْعَادِ وَالْمَعَالِمِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تُخَالِطُهَا مَعَانِي الْغَزَلِ فِي هَذِهِ
 الْآيَاتِ : اللَّبَاتُ الْوَاضِحَةُ وَالْجَيْدُ الْبَرَّاقُ مِنَ الْمَرْأَةِ •
 وَأَتَمُّ ذُو الرِّمَةِ إِحْكَامُ الْمَزْجِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ الْبَشَرِيِّ
 فِي قَوْلِهِ :

كَأَنَّ عَمُودَ الْفَجْرِ جَيْدٌ وَلَبَّاءُ
 بَعِيدُ الدَّجَى مِنْ حُرَّةِ الْوَجْهِ سَافِرٌ
 ههنا صُورَةُ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ بَرُوزَ سَافِرَةِ الْوَجْهِ عَلَى رَأْسِهَا
 الْخِمَارُ وَجَيْدُهَا وَلَبَّاءُهَا مُشْرِقَةٌ وَمِنْ حَوْلِهَا سَوَادٌ • وَصُورَةُ
 أَوَّلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ بِنُورِهِ النَّاعِمِ الْمَخَالِطِ الظَّلَامِ وَشَفَقِهِ الْمَمْزُوجِ
 الْبَيَاضِ بِالْأَرْدُجِ وَأَنْوَاعِ الْبَرُوزِ الْأَفَاقِ بِنَبَاتِهَا وَسَهُولِهَا
 وَرُبَاهَا ••

شَدَّ مَا تُشَبِّهِ هَذِهِ الصُّورَةَ لَوْحَةَ لِينَارْدُو دَاقْنَشِي الَّتِي سَبَّاهَا
 (الضَّاحِكَةُ) أَوْ (الْبَاسَةُ) (لَاجِيو كَنْدَا) •

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْمُرءُ هَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَوَارِدِ الْخَوَاطِرِ كَمَا يَقَعُ
 الْحَافِرُ عَلَى الْحَافِرِ ، أَمْ وَقَعَ إِلَى لِينَارْدُو دَاقْنَشِي بَعْضُ مَا تُرْجِمُ إِلَى
 اللَّاتِينِيَّةِ أَوْ عَنْهَا مِنْ شِعْرِ غَيْلَانَ • ؟

وَيُخَيَّلُ إِلَى الْكَثِيرِينَ ، وَهَذَا مِنْ بَعْضِ مَا دَفَعَ الدُّكْتُورَ زَكِيَّ

مبارك رحمه الله الى الغضب وحيازة باب الغزل كله الى الطبيعة ، أن
مَوْضُوعَ أَشْعَارِ الطَّيْعَةِ فَنُّ اخْتِصَّ بِهِ الْإِفْرَنْجُ ، وَقَصَّرَ فِيهِ
العرب ؛ فهبَّ شوقي رَحِمَهُ اللهُ في :

آذار أَقْبَلَ قَمَّ بِنَا يَا صَاحِ
وغيره يستدركون ذلك .

والتأمل ربما صحَّ عنده ان اوصاف البساتين ، وهي التي حَكَتْ
مَحَلَّ اوصاف الأبلر والقفار في المطالع والنسيب كما لاحظ ابن رشيق ،
قد كان لها اثر كبير في أشعار الاوربيين ، ممَّن عرفوا العريضة
فقرأوها في أشعار الاندلس مثل كَلْبَةَ ابن الخطيب :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمِي

يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ

لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا

فِي الْكَرَى أَوْ خُلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ

إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمُنَى

تَنْقَلُ الْخَطُوبُ عَلَى مَا يَرْسَمُ

زَمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثَنَى

مِثْلَمَا يَجْلُثُو الْوُفُودُ الْوَسِيمُ

وَالْحَيَا قَدْ جَلَّ الرَّوْضُ سَنًا

فَتَغُورُ الدَّهْرُ مِنْهُ تَبَسِيمُ

وأشعار ابن زيدون وابن خفاجة ، بكثرة المشاركة من أمثال الصنوبري

وأبي عبادة وابن الرومي وأبي تمام .

وَأَلْفَيْتُ النَّظَرَ ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَيْسَ إِلَّا ، إِلَى قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ
الانجليزي أندرو مارثيل (١٦٢١ - ١٦٧٨) الَّتِي أَسَمَاهَا (خَوَاطِرٌ فِي
حَدِيقَةٍ) (Thoughts in a garden) فَإِنَّ أَوَّلَ مَا اسْتَهْلَمَهَا بِذِكْرِ النَّخْلَةِ وَلَيْسَ
فِي بِلَادِهِ نَخْلٌ ، وَالظِّلُّ الَّذِي وَصَفَهُ أَوَّلَ الْأَمْرِ ظِلُّ نَخْلَةٍ - ثُمَّ قَالَ إِنَّ خِلَاطَ
النَّاسِ لَيْسَ بِشَيْءٍ إِذَا قِيسَ إِلَى الْوَحْدَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْخُلُوصِ مِنْ دُنْيَا الْمَجْتَمَعِ
إِلَى فِكْرَةِ خُضْرَاءِ فِي ظِلِّ أَخْضَرٍ •

Society is all but rude
To this delicious solitude
Annihilating all that's made
TO a green thought in a green shade

وَشَبَّهَ هَذَا بِقَوْلِ أَبِي الْعَلَاءِ لَا يَخْفَى :
ذَرَانِي وَكُتِّبِي وَالرِّيَاضَ وَوَحْشَتِي
أَكُونُ كَوَحْشِيٍّ بِإِحْدَى الْأَمَالِسِ
يُسَوِّفُ أَزْهَارَ الرَّبِيعِ تَعْلَةً
وَيَأْمَنُ فِي الْبَيْدَاءِ شَرَّ الْمَجَالِسِ
وَقَوْلُهُ الظِّلُّ الْأَخْضَرُ فِيهِ نَفْسُ أَبِي تَمَامٍ حَيْثُ قَالَ :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرِي كَمَا
تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصُورُ
تَرِيَا نَهَارًا مَشْمَسًا قَدْ شَابَهُ
زَهْرَ الرَّبَا فَكُنَّا هُوَ مَقْمَرُ
فَكُنَّا هُوَ ظِلُّ أَخْضَرٍ •

وأوضح من هذا شبه قوله :

What wondrous life is this I lead
Ripe apples drop about my head;
The Luscious clusters of vine
Upon my mouth do crush their wine;
The nectarine and curious peach
Into my hands themselves do reach;
Stumblings on melons as I pass
Ensnared with flowers, I fall on grass.

بوَصَفَ ابن الرومي للرازي وأوصافِ ابي الطيّبِ لثمار
شِعْبِ بوان :

لها ثمرٌ تشيّرُ اليك منه

بأشربةٍ وقن بلا أواني

وكم يود المرء لو تفرغ بعضُ طلاب العربية لدرس اللاتينية ليطلعوا
على ما تُرجِم من أشعار العربية وميراث آدابها ذى الكنوز وأخذَه من
بعْدُ الافرنج أخذاً من دون اعتراف اما جهلاً أو عامدين • ويُنسَبُ
اكثر افتتاحِ الافرنج بالطبيعة في القرنين الماضيين إلى الحركة الرومانتيكية
والى تأثير جان جاك روسو ، وما خرج هؤلاء عن مذهب من سبقوهم إلا
بالَّذي روجّه روسو من مذهب قوة العاطفة والانفعال ازاء الطبيعة انفعالا
لا يخلو من روح تصوّف لعله اسلامي المعدن والسُنخ في اصله ، وفي
تأملات رُوسو وهو يمشى منفردا وبعض ما جاء في اعترافاته ما
يشعر بذلك •

هذا ولقّت نظري من أشعار الانجليز الرومانتيكيين ومن اليهم بوجه

خاص قصيدة كيتس عن البلبل (١٧٩٥ - ١٨٢١) فقد استشهد بذكر الهم
والخمر على النحو الذي كان يصنع شعراء العرب في مطالع النسيب القديم
وقصيدة وليام بلاك (١٧٥٧ - ١٨٢٧ م) يذكر السر .

Tiger, tiger, burning bright
In the forests of the night

يا نَمْرُ يا نمر ..

ذا اللهب الوهاف ...

في غابات الظلام

ثم وصف خطا النمر وذراعيه وجبروته (وحين أَخَذَ قَلْبُنِي فِي
الْوَجِيبِ ، يا لِسَّاعِدٍ .. ويا للقدم ... الرَّهيب) *

لا شك ان وليام بلاك Willam Blake على ما ينسب اليه من الاصاله
والرومانسية الفذة قد اطلع على ترجمه من كلمة ابي الطيب البادرة :

وَرَدَ اذا ورد البحيرة شارباً

وَرَدَ الفراتَ زئيره والنَّيْلا

ما قوبلت عيناه الا ظننا

تَحْتَ الدجى نارَ الفريق حولاً

يَطُءُ لشرى مرفقا من تيهه

فكأَنَّهُ أُسٌ يَجُسُّ عليه

ويرد عقرته الى يافوخه

حتى تصير لرأسه إكليلاً

وتظننه ممّا يُزَمِّجُ نفسه

عنها لشدة غيظه مشغولاً

قَصْرَتْ مَخَافَتُهُ اِذْ خُفِيَ فَكأنَا
 رَكِبَ الكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولَا
 الْقَى فَرِيستَه وَبَرَبَر دُونَهَا
 وَقَرَبَتْ قُرْبًا خَالَهُ تَضْفِيلا
 مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ
 حَتَّى حَسِبَتْ الْعَرَضَ مِنْهُ الطُّولَا
 أَسَدٌ يَرَى عَضْوِيهِ فِيكَ كَلِيهِمَا
 مَتْنًا اِزَلَّ وَسَاعَدَ مَفْتُولَا
 وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ
 يَبْغَى إِلَى مَا فِي الْحَضِيضِ سِيلا
 أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّنِيَّةِ تَارِكُ
 فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قِيلا
 وَالْعَارُ مَضْطَّاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
 مِنْ حَتَفِهِ مِنْ خَافَ مَا قِيلا

والذي يدعو الى هذا الظن ما في قصيدة وليم بلاك من تتبّع معاني
 أبى الطيب في صفه عيني الأسد . وهيئة تبهنّسه بمنسيته وتجمعه
 وزمجرتة ليثب وشجاعة قلبه وقلة اكترائه بالعدد الكثير ونوكهشم ابى
 الطيب ان عنده معايير من قضايا النبّل الذي بأبى الدنبة من مضض
 العار

What immortal hand or eye
 Could frame thy fearful symmetry

هذا كأنه اختصار قول أبي الطيب :

حتى حَسِبْتَ العَرَضَ منه الطولا

In what distant deeps or skies

Burnt the fire of your eyes

..... burning bright

In the forests of the night...

وهو تكرر لقوله الأول

وقوله الذي ترجمته (غابات الدجى) أو (غابات الظلام) إنما هو من

قول أبي الطيب (تحت الدجى) •

وحام وليم بلاك حول معانى الحكمة التي عند أبي الطيب بنوع من

جَهْدٍ وتكلف غوص •

What the hammer? What the chain?

In What furnace was thy brain

وتكرر معنى النار لا يخفى ، والخطابة التي في الاستفهام قبل جوفاء

ذات قعقعة ليست في مستوى ما تقدمها •••••

ثم أي مخ للأسد ؟ ••••• إنسا هو قلبه الباسل ولو كان معه مخ

لكان ما قال أبو الطيب في غير هذه القصيدة :

لَوْلا العقول لكان أدنى ضيغم

أدنى إلى شرف من الإنسان

هذا ومثله هذا التوافق والتوارد على الخواضر يعسر أن يظن

فيه أنه لم ينظر فيه الآخر وهو وليم بلاك إلى الأول وهو أبو الطيب ،

وقد نعلم أن علوم العرب وآدابهم كانت تترجم ويُلِمُّ بها أولو

الثقافة في اوربا - ومن حسب أنه انما كان يَتَرَجِّمُ الطب والفسفة
والرياضيات والفلك وما إلى ذلك ولا يؤبّه إلى الأدب فهذا وهم •

وقد ذكر الكاتب الفرنسي ستندال (Stendhal) - (١٧٨٣-١٨٤٢)
في احدى هوامش كتابه عن الحب في معرض الحديث عن عشاق العرب وجيل
بشينة أن رجال الفكر الاوربيين لما وجدوا آداب العربية ، مع الذي كان من
معرفة العرب بعلم يونان ، لا تحاكي اساليب اللاتينية وآداب اليونان القديمة،
احتقروها واعرضوا عنها مع كثرة المخطوطات منها في باريس • ولعسري ان
في هذا الذي قاله لدليلا على اضلاعهم عليها • ولم يكن هو أول من فعل ذلك ،
وفي ترجمته ما يفيد ان أول معرفته عن عشاق العرب كان عن طريق أحد
مدرسيه •

واذ ثبت اطلاع مفكري الافرنج على آداب العربية فما شابه اساليب
روائعها من روائعهم فعنها أخذوه ، ولا نكتفيت لما اضروه من إعراض
واحتقار فما كان ذلك الا دعوى وجحوداً • واحتيجان صليبة على
الأرجح ، والله تعالى أعلم •

هذا واذ نحن بمعرض الحديث عن الأسد ، فقصيدة البحري التي
يوازن بينها وبين قصيدة أبي الطيب . مع وصفها غيل الأسد وانظر المحيط
به كانت أشد حرصا على اظهار بسالة الممدوح ومهارته بالسلاح وفنون
القتال :

هزبراً مشى يَبْغِي هَزْبَرًا وَأَغْلَبَا

من القوم بغشى باسل الوجه اغلبا

حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَاعْزَمَكَ اثْنَى
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدَّه نَبَا
لَكِنَّ أَبَا الطَّيِّبِ مَعَ ذِكْرِهِ بَدْرَ بْنَ عَمَارٍ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَقَوْلِهِ
فِيهِ :

أَمْعَفَّرَ الْأَسَدَ الْهَزْبَرِ بِسَوْطِهِ
لَمَنْ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
(وَلَا شَكَّ أَنْ بَدْرًا أَطْرَبَهُ هَذَا الْمَدْحُ) إِنَّمَا كَانَ إِعْجَابُهُ بِالْأَسَدِ ؛ هَذَا
الْحَيَوَانِ الْفَذَّ الشَّجَاعَةَ الْبَاهِرَةَ الشَّرَاسَةَ ، الْبَاسِلَ مَنْظَرَ الْوَجْهِ •
وَمَعَ أَنْ ظَاهَرَ قَوْلُهُ :

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِمَا
مَتْنًا أَزَلَ وَسَاعِدًا مَفْتُولَا
كَأَنَّهُ فِي صِفَةِ جِسْمِ بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ الرِّيَاضِي ذِي الْعَضَلَاتِ ، لَكِنْ بَاطِنُهُ
فِي صِفَةِ الْأَسَدِ إِذِ الْمَتْنُ الْأَزَلُ وَالسَّاعِدُ الْمَفْتُولُ هُمَا عُضْوَا الْأَسَدِ وَالَّذِي عِنْدَ
بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ شَيْءٌ " يُشَبَّهُ بِهِمَا ، فَتَأْمَلُ •
وَأَحْسَبُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ لَمْ يَخْلُ مِنْ اسْتِشْعَارِ تَوَعُّرِ سَمَاجَةٍ فِي
مَمْدُوْحِهِ الْإِنْطَاكِيِّ إِذْ قَالَ :

لَمْ تَفْتَقِدْ بِكَ مِنْ غَيْثٍ سِوَى لَشَقٍ
وَلَا مِنَ الْبَحْرِ غَيْرَ الرِّيحِ وَالسَّفْنِ
وَلَا مِنَ اللَّيْثِ إِلَّا قَبْجَ مَنْظَرِهِ
وَمِنْ سِوَاهُ سِوَى مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

وهل قبح الليث الا أكنّ منظره مخيف ؟

القى فريسته وبربر دونها

وقربت قريبا خاله تطفيا

أسد" يرى عضويه فيك كليهما

متنا أزل وساعدا مفتولا

ووصف أبي الطيب للفارس والفرس بعُدْ لا يَخْلُو من إشعار

بضعتهما ازاء هذا « الخُبْعَيْنَةِ الشَّجِيعِ » - ولعلّه ما غلبه الا كثرة

العدد عليه من كلّ جانب - تأمل قوله :

قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَى فَكَأَنَّمَا

رَكِبَ الْكَسِيَّ جَوَادَهْ مَشْكُولَا

أليس فيه إشعار" بخوف الفارس كما قد خافت فرسه الظامئة

الفصوص التي :

يَأْبَى تَفَرُّدَهَا لَهَا التَّمْثِيلَا

هذا وذكر « اللَّثَقِ » الذي مرّ آنفاً ما أرى أبا الطيب قصد بذكره

تَقْضِيل صاحبه على الغيث كما قد قصد الى إثبات تجربة أحسنّها من

خُبْثِ اللَّثَقِ - وهو الطين المزج انذي تصيرهُ الارضُ الزراعية غَيْرُ

ذاتِ الرمل بعْدَ المطر - وساجدةِ الْوَحْلِ فيه • وقد يَجُودُ الغيثُ

ولا يكون معه لُثَقٌ •

وشبيه بذكره اللَّثَقُ ، ذكرهُ الرّيحُ والسّفنُ إذ معنى ذلك الدّوار

ولعله عاناه في بعض اسفاره والله أعلم • هذا وأبو الطيب عتيق الاعجاب

بجنس الأسد وقوله :

كل غاد لحاجة يتمنى يتفارسن جهرة واغتيالاً
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى ان يكون الغضنفر الرئبالا
فيه تأويل جانب كثير من هذا الاعجاب . إذ الناس سباع والأسد
أصرح وأنبل سبعية منهم ومن قدر على أن يكونه في القوة
والإقدام والهيبة كأنه لا يتردد . وعند نفسه كان أبو الطيب أسداً
- كما قال :

فارم بي ما أردت مني فإني
أسد القلب آدمى الرواء
وقريب منه قوله من قبل :

وجاهل مدّه في جهله ضحكى
حتى أتته يد فراسة وفهم
إذا رأيت ثيوب الليث بارزة
فلا تظنّ ان الليث يتسم
فدل بهذا على المكتمن في نفسه من ان صاحب القلب الاسدي أسد له
انياب وأظفار فلا عجب أن استشعر نحوه ومدوحوه كل حذر .
وهو القائل يطلب حلف أسد الفراديس :-

أجارك يا أسد الفراديس مكرّم
فتسكن نفسي أم مهان فمسنم
ورائي وقدّامى عداة كثيرة
أحذر من نص ومنك ومنهم

فهل لك في حلقي على ما أريده

فأني بأَسباب المعيشة أعلم

ولم يخل في هذا من نظرٍ الى كلسة القتال الكلابي حيث زعم أنه
صحب النسر في الغار:

ولى صاحب في الغار هدك صاحباً

هو الجوزُ إلا انه لا يُعللُ

إذا ما التقينا كان جُلَّ حديثنا

صُمات وُطُوف كالعابِل أطحلُ

فأغلبه في صنعة الزاد إني

أميظُ الأذى عنه وما إذ يهلكُ

وكان آيات القتال هذه من فكاكات العرب ونواديرهم
وأكاذيبهم كالذي زعموا من تزوج السَّعْلاة وقتل الشَّقَّ
والغول .

ويقول أبو الطيب :

ومن يجعل الضَّرغامَ بازاً لصيِّده

تصيِّده الضَّرغامَ فيما تصيِّدا

فما كان يغيب عنه استحالة حلف أسدِ الفرديس . ولكنَّه
كما قال :

تمنَّ يلد المستهام بذكره

وان كان لا يُجْدِي فتيلاً ولا يُجْدِي

وَغَيْظَ عَلَى الْأَيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى

ولكنه غيظ الأسير على القدر

وقد نَعَلِمَ قِصَّةَ نَاسِكٍ كَلِيلَةٍ وَدِرْمَتَةٍ إِذْ أَصَابَ فَأَرَةً صَغِيرَةً
فَدَعَا اللَّهَ أَنْ تَصِيرَ أَدْمِيَّةً حَتَّى يَقْدَرَ عَلَى تَرْبِيتِهَا فَلَمَّا شَبَّتْ وَارَادَ
تَرْوِيجَهَا لَمْ يَجِدْ لَهَا مِمَّا يَعْجَبُهَا كَفْئًا إِلَّا الْفَأَرَ فَدَعَا اللَّهَ أَنْ تَكُونَ فَأَرَةً .
وقد نعلم إعجاب الرومانتكين ووليم بلاك منهم - بيدأوة الأعراب
وتوحشهم •

فلعل هذا الاعجاب دفعه وهو لا بشعر الى أن يحول ما أصاب
من صفة الأسد في الذي بلغه من شعر المتنبى أو ما ترتب بعد
تأثيره أو حذى فيه على أسدويه ، فيجعله في النسر :

Tigre, tiger, burning bright

In the forests of the night.

وما عَرَفَ أَوْ أَبَهَ أَنْ نَمِرَهُ مَخْطُوطٌ ، وهو ضَرْبٌ مِنْ وَحُوشِ
بِلَادِ الْهِنْدِ ، وَأَنَّ نَسِيرَ الْعَرَبِ ذُو نَقْطٍ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ نَمِرَةٌ يَعْشُونَ
الثوب ذا النقط والالوان واياه عنى ابن مالك حيث قال :-

ولا يجوز الابتداء بالتكريم ما لم تقد كعند زيد نمره

ولعله لو فطن الى ذلك لكان سى كلته هذه بالأسد مكان النمر ،
أم تراه عندا أثر تسميتها النمر بقصد التعمية وليخفى مكان أخذه حيث
أخذ من أبى الطيب ؟ هذا ومن عجيب أمر لامية الأسد هذه قوله :

سَمِعَ ابْنُ عَمْتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ

فَنَجَا يَهْرُولُ أَمْسَ مِنْكَ مَهُولًا

ولست الهرولة بأسرع الجَرِّي ، كالذي يقع عند الفرار من مطارِدٍ •
ويذكر أصحاب الصَّيْدِ ومعرفة الوحوش أن الأسد اذا قَتَلَ بسَوْضٍ
سارعت الأسود الى الاقتتال منه تَسْتَوْبِئُهُ •

وأمرد منا فرَّ منه فراره وكَقَتْلِهِ أَلَاءَ يَمُوت قَتِيلًا
وكأنَّ هذا يقوله على لسانِ الأسد الذي أَسْتَوْبَأَ المكان فانتقل عنه :
تَلِفَ الذي اتَّخَذَ الجِرَاءَةَ خُطَّةً
وعَظَ الذي اتَّخَذَ الفِرَارَ خَلِيلًا

وهذا كالرثاء للأسود عامة ، أنها مع شجاعتهما وقوَّة اجسادها لا تقوى
على مكر الانسان واحتياله واغتياله • وهل قَتَلَتْ أَسَدٌ اللامية الا
وَتَبَّتْهُ . حيث تلقته الرماح ، فنزف ثم :

خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحْتَهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلَا
قَبِضَتْ مَنِئْتَهُ يَدَيْهِ وَعُنَقَهُ فَكَأَنَّمَا صَادَقَتْهُ مَغْلُولَا
هذا وقال ابن الاثير عن هذه اللامية ولا ميتة التي رثى بها أده سيف الدولة :
نَعِدْتُ المَشْرِفِيَّةَ والعَوَالِي وَتَقَتَّلْنَا المَنُونِ بِلا قتال

إنهما « كَفَى بِهِمَا شَاهِدًا عَلَى مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ انْفِرَادِهِ بِالْإِبْدَاعِ » والذي
يُشِيرُ إِيَّاهُ ههنا ما ذكره قوله عند الموازنة بينه وبين الطائيين « وَلَمْ تَأْمَلْتِ
شَعْرَهُ وَجَدْتَهُ أَقْسَامًا خَمْسَةً ، خَمْسٌ فِي الْغَايَةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا دُونَ
غَيْرِهِ » ... وهي الغاية التي وصف بَعْضُ امثَلَتِهَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ فَقَالَ :
« وَهَذَا الْمَوْضِعُ لَمْ يَأْتِ فِيهِ أَحَدٌ » بِمَا يَثْبُتُ عَلَى الْمُحَكِّمِ إِلَّا أَبُو الطَّيِّبِ
وَحَدَّثَهُ وَأَمَّا غَيْرُهُ مِنْ مُفْلِقِي الشُّعْرَاءِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فَانْهَمَ قَدْ قَصَرُوا
عَنْ « هَذَا مَعَ زَعْمِهِ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ أَبِي تَمَامٍ

فَقَصَّرَتْ عَنْهُ خَطَاهُ وَلَمْ يُعْطِهِ الشُّعْرُ مِنْ قِيَادِهِ مَا أَعْطَاهُ • وَهَذَا أَسْوَقُهُ
لِمَجْرَدِ التَّنْبِيهِ لَا لِأَرْعَافِهِ بِهِ أَنَّ ابْنَ الْإِثِيرِ وَكَقَعَ بِهِ فِي تَنَاقُضٍ • إِذْ لَا رَيْبَ
أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ رَوَائِعَ الْمُتَنَبِّيِ أَجُودُ مِنْ رَوَائِعِ سِوَاهُ وَلِذَلِكَ زَعَمَ أَنَّهُ خَاتِمُ
الشُّعْرَاءِ وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ :

لَا تَسْخَنَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رَوْيَتِهِ
إِنْ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَا خُتَمُوا
وَلَا تَبَالِ بِشِعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ
قَدْ أَفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَّ
وَلَيْتَ أَبَا الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَاشَ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا لِيَشْهَدَ كَيْفَ أَفْسَدَ
الْقَوْلُ وَأَحْمَدَ الصَّمَّ وَجَاءَتْنَا نُمُورُ أَضْرَابِ « بَلَاكِ » الَّتِي كَانَتْ
عِنْدَهُ أَسَدًا •••••

أَسَدًا فَرَأَيْتُهَا الْأَسْوَدَ يَقُودُهَا
أَسَدٌ تَكُونُ لَهُ الْأَسْوَدُ ثَعَالِبًا
فَصَيَّرْنَاهَا نَحْنُ بِافْتِنَانِ الْمَحَاكَاةِ الْكَاذِبَةِ سَنَانِيرَ •
هَذَا ، وَمَا بَرَزَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذَا التَّبَرِيزُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ الْإِثِيرِ
وَجَزَمَ بِهِ الذَّهَبِيُّ إِذْ قَالَ « لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَحَدٌ أَشْعَرُ مِنْهُ أَمَّا مِثْلُهُ فَقَلِيلٌ » ،
بِأَنَّهُ أَدَقُّ الشُّعْرَاءِ غَوْصًا عَلَى الْمَعَانِي أَوْ أَكْثَرَهُمْ تَشْبِيهًا وَاسْتِعَارَةً ، أَوْ
أَخْبَرَهُمْ بِتَوْلِيدِ الْمَعَانِي أَوْ أَشَدَّهُمْ افْتِنَانًا فِي الْأَوْصَافِ ، أَوْ أَرْفَقَهُمْ
غَزَلًا ، أَوْ أَقْوَاهُمْ أَسْرَ جَزَالَةِ الْفَافِظِ ، أَوْ أَجْهَرَهُمْ رَتَّةَ جَرَسِ
غَنَاءٍ ، وَأَبْرَعَهُمْ وَشَى صِنَاعَةٍ بَدِيعٍ ••• كُلُّ أَوَّلِكَ لَهُ مِنْهُمْ نَصِيبٌ
جَيِّدٌ وَافٍ ، غَيْرَ أَنَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَتَقَدَّمُ فِيهِمْ جَسِيعًا أَوْ فِي بَعْضِهِمْ دُونَ

بعض كالذي ذكر ابن الاثير من أمّر أبى تمام حيّث قال « هو ربّ معانٍ وصيّقل البابِ وأذهانٍ » وجعل أبى الطيب دونه في هذا الموضع وكالذي ذكره ابن رشيق من تقديم ابن الرومي في باب الغوص على المعاني ونوليدها . وكأنّ الإجماع قائم بين النقاد على أنّ ديباجة البحري في المكان الذي لا يدركُ ولذلك قال ابن الاثير إنه اجاد سبك اللفظ على المعنى وأراد ان يشعّر فغنى . وإذن فبماذا برز أبو الطيب ؟ وأحسب أنّ ابن الاثير قد وهم في باب موازنته بين البحري وأبى الطيب في نعت الاسد اذ فضّل هذا ثم قال في توضيح أسباب هذا التفضيل : « والبحري وان كان أفضل من المتنبى في صوغ الألفاظ وملاوة السبك فالمتنبى أفضل منه في الغوص على المعاني » ومحلّ وهمه أن هذه الصفة هي عينها التي قدّم بها أبو تمام عليه ثم عدل عن تقديمه فيها حيث يكون أبو الطيب انفرد بالابداع وذلك في الخمس الذي نصّ عليه ولا يمكن ان يكتون انفردّه بالابداع بسبب الغوص على المعاني وهو ما خبرنا أنّه قد قصرت فيه خطاه عن خطا أبى تمام .

وأقرب الى الصواب ما ذكره ابن رشيق من أنّ أبى الطيب كان يهجم على معانيه كالفارس . والحق أنّ سبب تبريز أبى الطيب هو قوّة شخصيّته ، وحرارة عاطفته وصِدْفَه في البيان عن نفسه . وقد نبّه ابن جني على هذا المعنى في الخصائص اذ قال عنه : « وما عرفته الا صادقا » . وقد فطن أبو العلاء الى أمّر شخصية أبى الطيب حين اعتذر له في رسالة الغفران عما أخذه عليه ابن الفارج من التصغير فقال بعد ان استشهد بأمثلة منها :

أَذْمَ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلَهُ
وَنَادَى الْخَوِيدِمَ عَنْ لَيْلِنَا
مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْلٍ عَصْرٍ... الخ

« وَلَا مَلَامَةَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا هِيَ عَادَةٌ صَارَتْ كَالطَّبْعِ ، فَمَا حَسَنَ بِهَا

مَأْلُوفِ الرَّبْعِ » •

وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَثِيرَ الْإِسْفَارِ • تَنَقَّلَ بَيْنَ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ أَيَّامَ صَبَاهُ وَشَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْقَى سَيْفَ الدَّوْلَةِ • وَقَالَ فِي الْقَصِيدَةِ
الَّتِي مَدَحَ بِهَا أَبَا الْقَاسِمِ الْعُلُوِي :

إِلَى لَعِيرِي قَصْدٌ كُلُّ عَجِيبَةٍ
كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عَيُونِ الْعَجَائِبِ
بِأَيِّ بِلَادٍ لَمْ أَجُرْ ذَوَائِبِي
وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَأْهُ رِكَائِبِي
وَقَالَ فِي مَرثِيَّتِهِ لِأُمِّهِ :

لَيْسَ لَدَى يَوْمِ الشَّامَتِينَ بِسَوْتِهَا
فَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَتْفَهُمْ رَغْمًا
غَرَّابٌ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالْقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عِجَاجَةٍ
وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمًا
يَقُولُونَ لِي مَا أَنتَ فِي كُلِّ بَلَدٍ
وَمَا تَبْتَغِي مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسَمَّى

وقال يَذْكُرُ فَقْرَهُ وَسَيَرَهُ عَلَى قَدَمِيهِ :

وَمَهْمُهُ جُبْتُهِ عَلَى غَدَمِي

تَقْصُرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُّ

بِصَارِمِي مُرْتَدٍ مَخْبَرْتِي

مُجْتَرِيءٌ بِالظَّالَامِ مُشْتَمِنٌ

إِذَا صَدِيقٌ نَكِرْتَ جَانِبَهُ

لَمْ تُعَيْنِي فِي فِرَاقِهِ الْحِيلُ

فِي سَعَةِ الْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ

وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلٌ

وَتَنْقَلُ أَيَّامُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ يَصْحَبُهُ فِي حُرُوبِهِ وَفِي سَوَى ذَلِكَ مِنْ

ضُرُوبِ ارْتِحَالِهِ وَكَثُرَ مَا كَانَ يَغْزُو سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِلَادَ الرُّومِ ، وَرَبَّمَا خَرَجَ

عَلَيْهِ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فَحَارَبَهُمْ فِي الْبَادِيَةِ - مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى

تَخَوْفَ أَنْ تُقْتَلَ السَّحَابُ

فَبَتَّ لَيَالِيَا لَا نَوْمَ فِيهَا

تَخَبُّ بِكَ الْمُسَوِّمَةُ الْعِرَابُ

يَهْزُدُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيَهُ

كَمَا نَقَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ

وَتَسْأَلُ عَنْهُمْ الْفُلُوتِ حَتَّى

أَجَابَكَ بَعْضُهَا وَهُمْ الْجَوَابُ

وفي سطر الغزوات الى أرض الروم يقول مثلاً :

وَاشْتَقَى بِلَادِ اللَّهِ مَا الرُّومُ أَهْلُهَا
بِهَذَا وَمَا فِيهَا لِمَجْدِكَ جَاهِدَ
شَنَنْتَ بِهَا الْغَارَاتِ حَتَّى تَرْكَهَا
وَجَفَنَ الَّذِي خَلَفَ الْفَرَنْجَةَ سَاهِدَ

ومثلاً :

وَصَوَّلَ إِلَى الْمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ
فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَأُورِدَا
سَرَيْتَ إِلَى جَيْحَانَ مِنْ أَرْضِ آمَدٍ
ثَلَاثًا لَقَدْ أَدْنَاكَ رَكُضٌ وَأَبْعَدَا
وبعد طول ملازمته لسيف الدولة سافر الى مصر ، وكان بعض سفره
فراراً حثيثاً وإلى ذلك أشار في قوله من قصيدةٍ مدحٍ بها كافوراً :
وَجَدْتَ أَتَقَعُ مَالٍ كُنْتَ أَذْخَرَهُ
مَا فِي السَّوَابِقِ مِنْ جَرَىٍ وَتَقَرِّيبِ
فَتَنَ الْمَافُوزِ حَتَّى قَالَ قَائِلُهَا
مَاذَا لَقِينَا مِنَ الْجُرُودِ السَّرَاحِبِ
تَهَوَّى بِسُجُودٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ
نَلْبَسُ نَوْبٍ وَمَا كُنُولٍ وَمَشْرُوبِ
يَرْمِي الشُّجُومَ بَعِيْنِي مِنْ يُحَاوِلُهَا
كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِي عَيْنِ مَسْلُوبِ

وأحسب أنه الى هنا نظر أبو العلاء في قوله :

ولا صَحِبْتُ ذُنَابَ الْإِنْسِ طَاوِيَةً

ثَرَّاقِبُ الْجَدَى فِي الْخَضْرَاءِ مَسْبُوتَا

وقد التمعت بهذا المعنى في كتابي (مع أبي الطيب) ؛ وقد كان أبو العلاء رحمه الله كثير الأخذ من أبي الطيب والتسليق على دراج مراقبه .

وقصّة فراره من كافورٍ معروفة ، وقد ذكرها وذكر الإبل البجّاويّة التي اجتاز عليها التّيه في كلمته :

الأكلُ ماشية الخيزلي فدى كلّ ماشية الهيدبي
وكلّ نجاة بجّاوية خثوف ومأبى حُسن الشّشي
ولكنهنّ حبال الحياة وكيدُ العداة وميظ الأذى
حتى صار الى العراق .

وقد زار أرض فارس ثم عاد من عضد الدولة وهو يقول :

أرى أسفى وما سرّنا بعيداً
فكيف إذا غدا السّير ابتراكا
فزّل يا بُعْدُ عن أيدي ركابٍ
لها وقّع الأسِنَّة في حشاك
وأيّاً شئت يا طرقي فكوني
أداة أو نجاة أو هلاكاً

رووا أن عضد الدولة قال : (تطيّرت عليه من تركه النجاة بين الأداة والهلاك .)

وقال الثعالبي في نحو من هذا المعنى جعل قافية البيت الهلاك فهك ،
هذا وجبى ما شاهده أبو الطيب وانطبع في نفسه من تجارب أسفاره قد
أفصح عنه بصدقه وحرارة عاطفته وقوة شخصيته • فمن ذلك ما
ضمّنه التشبيه والاستعارة وصوّرَ البيان مثل قوله :

هُوَ الْبَحْرُ غَضٌ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِناً
على الدرّ واحذره إذا كان مزبداً

وقوله :

ويُخَشَى عِبَابُ الْبَحْرِ وَهُوَ مَكَانُهُ
فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبأ

وقوله :

هَلْ الْحَدَثُ الْحَمَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا
وتعنم أي الساقين الغمام
بناها فأعلى والقنا تقرر القنا
ومواج المنايا حولها متلاطم

فكما في البيتين الأولين صورة البحر مزبداً وصورته يغشى
الساحل ويلطم صخره ورملة وهنا صورة صخرة عاتية وسط
البحر يحيط بها صخب الأمواج وهي الصورة المستعارة لصفة
القلعة وصراغ الجيوش حولها هنا •

وقوله :

حواليه بحر للتجافيف مائج
يسير به طود من الخيل أيهم

وههنا أيضا كامنًا وراء الاستعارَةِ إحساسٌ "قَوِيٌّ" باتساعِ
الْبَحْرِ وعظمته وارتفاعِ الجبلِ وشمُوخه ، ولا رَيْبَ أَنَّ هذا شعورٌ
انطبع في نَفْسِ أَبِي الطيبِ من مشاهدةِ جبالِ لُبْنانٍ وشَوَاطِيءِ سَوَاحِلِ
الشامِ • ومِمَّا يدلُّك على صِحَّةِ هذا الذي نَذْهَبُ إليه قوله مثلاً
يُشَبِّهُ نفسه بالبحرِ والجبالِ على نَحْوٍ من تشبيهه نَفْسَهُ بِالْأَسَدِ :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَتَنِي

الْجِبَالُ وَبَحْرٌ شَاهِدُ أَتَنِي الْبَحْرُ

ومن امثلة ما ضَمَّنَهُ التشبيه والصُّورَ البيانية من انطباع نَفْسِيَّ
إزاء بعضِ مظاهر الطبيعة قَوْلُهُ :

وَجَيْشٌ يَتَنَّى كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ

خَرِيقٌ رِيَّاحٍ وَاجَهَتْ غُصْنًا رَضْبًا

فهنا شعورٌ رَهْبَةٍ إزاء خَرِيقِ الرِّيحِ وهَيَاجِهَا . وتَأَمِّلْهُ
دَقِيقَةً لَخَفَقِ وَرَيْقَاتِ الْأَغْصَانِ الْخُضْرِ الدَّقِيقِ النَوَاضِرِ
وهي تَرْقُصُ وتَتَنَّى لهبوبِ الرِّيحِ صَغِيرَاتٍ جَذَلَاتٍ فِي أَصْرَافِ
الشَّجَرَاتِ الْكَبِيرَاتِ الثَّابِتَاتِ لِلْعَصْفِ الشَّدِيدِ مِنْ حَوْلِهِنَّ - كَهَذَا الطَّوْدِ
وَالْجِيوشِ تَتَخَلَّلُهُ كُلُّ صَخْرَةٍ وَمَرٌّ مِنْهُ كَأَنَّمَا هِيَ غُصْنٌ رَطْبٌ
صَغِيرٌ مَهْتَزٌّ •

وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ

فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجُبًا

وَأَحْسِبُ أَنَّ هَذِهِ الْعَجَاجَةَ فِي الْحَقِيقَةِ مَا كَانَتْ الْخَرِيقَ الرِّيحِ

وافتن أبو الطيب فأشرب ذلك نَفْساً من خبر يوم حليلة الذي زعموا أنَّ
العجاجَ فيه غَطَّى ضَوْءُ الشمس حتى بدت النجومُ وقد عكس أبو
الطيب الصورة كما ترى •

وقوله :

وكانوا يَرْمُوعُونَ المثلوك بأن بدو^١

وأن نَبَتَتْ في الماءِ نَبَتَ الغلافق

والشاهد هنا صورة الغلفق وهو ما غلظ من الطُّحْب الطافي

على الماء •

وان يكن اتساع الصحراءِ بمنزلة بحرٍ مستدٍّ ، فالدائنُ وزروعُ أهل
الريفِ في أطرافه وامراؤُهُم وملوكُهُم كل ذلك طافٍ كما يطفو الغلْفَق •

وقوله :

تعوَّدَ الا تقضم الخيْلُ حَبَّه

إذا الهامَ لَم تَرَفَعْ جُنُوبَ العَلَّاق

ولا تَرِدَ الغُدْرانَ الا وماؤُها

من الدَّم كالرَّيحانِ تَحْتَ الشَّقَائِق

وما أَحْسِبُ أن أبا الطيب جمع بين صورةِ الرِّيحانِ تحت
الشَّقَائِقِ البهجةِ الجميلةِ وصورةِ الغُدْرانِ على أطرافِ سَطْحِ
مائها الدَّم ، الا لمشاهدتهِ مَنْظراً جمع بينهما انطبعت صورتهِ في
ذِهْنه - وَحَشِيَّةِ الحَرَبِ ، ووَدَاعَةِ الطبيعة ، فتأمل •

وقوله :

قد سوّدت شَجَرَ الجبالِ شعورُهم
فكأنَّ فيه مُسِفَّةً الغرْبانِ
وجرى عى الورقِ النّجيعُ القاني
فكأنه النَّارُنجُ في الأغصانِ

وملاحظة المناظر الطبيعية - منظر الغربان مُسِفَّةً على الشجرِ
مُسَوَّدَةً بين خُضرةِ أغصانه وغيَرَتِها ومنظرُ النارنجِ على
الأغصان - بَيِّنَةٌ ههنا - ولا أرى إلا أنَّ أبا الطيب قد نظر إلى قول
أبى تمام :

ما رُبَّعُ مِيَّةٍ معوراً يُطِيفُ به
غَيَّلانُ آبَى رُبّاً من رُبْعِها الخَرْبِ
ولا الخُدودُ وإن أدْمينَ من خَجَلٍ
أشهى إلى ناظرٍ من خَدِّها التَّربِ
سَمَاجَةٌ غَنِيتٌ منا العُيونُ بها
عن كُلِّ حُسْنٍ بدا أو منظرٍ عجبٍ
والذي حسَّنها الانتصار : ولقوةِ شعور أبى الطيب به لم يَحْتَجْ
إلى أن يفسِّره كما صنَّع أبو تمام .

وقوله :

تلاكَ وبَعْضُ الغَيْثِ يَتَّبِعُ بَعْضَهُ
من الشامِ يَتَلَوُ الحاذِقُ المُتَعَلِّمُ

والشاهد هنا منظر تتابع السحاب ، صِغَارُهُ يَتَلَوْنَ كِبَارَهُ وَكِبَرَاهُنَّ
الْمُبَرِّقَةُ مِنْ بَعْدٍ كَأَنَّمَا تَجْتَذِرُ بَهْنًا اجْتِدَابًا •
وقوله :

لَمَّا قَفَيْتَ مِنَ السَّوَاوِحِلِ نَحُونًا
قَفَيْتَ إِلَيْهَا وَحُسْنَةً مِنْ عِنْدِنَا
أَرْجَ الطَّرِيقِ فَمَا مَرَرْتَ بِمَوْضِعٍ
إِلَّا أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوْتُنَا
لَوْ تَعَقَّلَ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلَتْهَا
مَدَّتْ مَحِيَّةً إِلَيْكَ الْأَغْمَامَا

هذا الأَرَجُ وهذه الأشجارُ ذاتُ الغصونِ أتراها مُجَرَّدَ الْفَاطِ
أُرِيدَ بِهَا مَعْنَى الْمَبَالِغَةِ أَمْ أَوْعِيَّةُ شُعُورٍ نَابِضٍ ذِي إِحْيَاءٍ قَوِيٍّ بِتَجْرِبَةٍ
أَحْسَنَهَا الشَّاعِرُ وَانْطَبَعَتْ فِي نَفْسِهِ كَلَّ انْطَبَاعٍ ؟
وقوله :

مُنْذُ احْتَبَيْتَ بَانْطَاكِيَّةَ اعْتَدَلْتَ
حَتَّى كَأَنَّ ذُرُيَ الْأَوْتَارِ فِي هَدَنٍ
وَمَذْ مَرَرْتَ عَلَى أَطْوَادِهَا قَرَعْتَ
مِنْ الشَّجُودِ فَلَا نَبْتَ عَلَى الْقُنَنِ

فهنا تجربة مَنْظَرِ رُؤْسِ الْجِبَالِ الْمُرْتَفِعَاتِ الصُّلْعِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ
الشَّاعِرُ قَدْ اجْتَازَ مَرُوجًا وَغَابَاتٍ - شَاهِدْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : فَلَا نَبْتَ
عَلَى الْقُنَنِ •

وقوله :

أنا صَخْرَةٌ الوادِي إذا ما زُوجِمَتْ
وإذا نطقت فإِنِّي الجوزاء

وزعم بعض الشراح ان مراده بذكر الجوزاء علوه المنطق وما أرى إلا
انه اراد أن منطقهُ باهرٌ ذو ألق كما تتألق أنجم الجوزاء الثلاث اللاتي
هُنَّ لها كالنطاق ومكانهن في الليلة الظلماء واضحٌ ايما وضوح •

وقوله :

وإن يكُ سَيْفٌ دولةٍ غَيْرِ قيسٍ
ففيه جُودٌ قَيْسٍ والثياب

وتَحَتَ رَبَّاهُ نَبَّأُوا وَأَثَّوا
وفي أَيَّامِهِ كَثُرُوا وطابوا

والشاهد هنا منظر النبات الجديد • وقد كان أبو الطيب بدويًّا مثل
هؤلاء الذين حاربوا سيف الدولة وكان هو شديد العطفِ عليهم والميل
الى جانبهم ، وفي باديتهم بادية الشام ، كان قضى شَطْرًا صالحا من أيام
شبابه •

وقوله :

إذا زَلِقَتْ مَشْيَتَهَا ببطونها
كما تَتَمَشَّى في الصعيدِ الأراقم

والبيت في صفة الخيل وتَأَمَّلْ انسيابِ الثعابين ببطونها وهنا جلى
كما ترى •

وباب تشبيهات أبي الطيب وضروب مجازه مجال " واسع وأمثته مما
 منه شفاف " بتجارب سفره واحساسه بجمال الطبيعة كثير ، فنكتفي بهذا
 القدر الذي اوردناه وربما وقع في ما سنستشهد به من بعد ، على غير بابه
 إن شاء الله ، ما هو من معدنه وسنخه • هذا والضرب الثاني مما يقع
 من تجارب الطبيعة في شعر أبي الطيب ما يأتي به أثناء الأغراض التي
 يتناولها كأنه جزء " منها أو مستطرد " به عنها أو متمم معناها أو من
 هذا الجرى •

مثلا قوله :

فأضحّت كأن السّور من فوق بدئه
 إلى الارض قد شقّ الكواكب والشهب
 نصد الرياح الهوج عنها مهابة
 وتفزع منها الطير أن تلقط الحبا
 وتردى الجناد الجرّد فوق جبالها
 وقد ندف الصنبر في طرقها العطب

تأمل قوله « تردى الجناد الجرّد » وما فيها من محاكاة وقعر
 حوافرها والصنبر بكسر الصاد وتشديد النون المفتوحة وسكون الباء هو
 البرّد الشديد والعطب بضم العين وسكون الطاء هو القطن •
 والغرض هنا وصف قلعة مرعش • وموضع الطبيعة المذكور
 أثناء هذا الغرض وفيه تجربة أبي الطيب مضممة ، وصف هذه
 الرياح الهوج والطير التي أفعزها زفيف الريح • وكأن أبا الطيب قد
 نظر الى علقمة حيث قال :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاغِقُهَا لَطِيرُهَا دَبِيبُ

أَي عَجَزَ عَنْ الطَّيْرَانِ لَفَزَ عَنْهُنَّ •

ثُمَّ نَبَعَ هُبُوبَ الرِّيحِ نَزُولُ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَتَنَاطُرُ قُطُنِ الصَّقِيعِ
وَقَدْ خَرَجَ أَبُو الطَّيِّبِ وَصَحْبُهُ يَرَوْنَ ضَوْنَ جِيَادِ الْجُرْدِ بِـ وَابِي الطَّيِّبِ
ارْتِيَاعَ نَفْسٍ وَبَهْجَتِهَا عِنْدَ الثَّلْجِ • وَلَا يَخْلُو قَوْسَهُ • (وَقَدْ
نَدَفَ الصَّنْبَرُ فِي طَرَفِهَا الْعُطْبَا) مِنْ نَظَرِ إِلَى قَوْلِ التَّرْدِي :

وَأَقْبَلَ مَوْضُوعَ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ

عَلَى سَرَواتِ الشُّوقِ قُطُنٌ مَنَدَفٌ

وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ بَعْدَ فِيهِ الْحَرَكَةُ - تَنَاطُرَ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ قُطُنٌ ،
وَزَفِيفُ الرِّيحِ وَعَصْفُهَا •

وَكَانَ قَوْلُهُ : (الْجِيَادِ الْجُرْدِ) فِيهِ نَوْعٌ مِنْ إِيحَاءٍ بِخَلْوٍ لِمَكَانٍ
مِنْ خُضْرَةِ النَّبَاتِ إِلَّا الشَّجَرَ الْعَارِيَّ السَّليْبَ •

وَمَا يَكْدُ لُثْكَ عَلَى قُوَّةِ انْطِبَاعِ صُورَةِ الثَّلْجِ وَاحْسَاسِ الثَّبَرِ
عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلُهُ :

حَتَّى عَبَرَنَ بِأَرْسَنَ سَوَابِحِ

يَنْشُرَنَ فِيهِ عَمَائِمَ الثَّرَسَانِ

يَقْمِصَنَّ فِي مِثْلِ الْمُدَى مِنْ بَارِدٍ

يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنًا كَتَخْصِينَ

يَصِفُ بِهَذَا غُبُورَ خَيْلِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - فِي أَوَائِلِ أَرْبَعِ يَغْزُونَ
أَرْضَ الْعَدُوِّ •

رَغْوُهُ فِي حَنَةِ رِيَاضَةِ مَهْرَدِ (الطَّخْرُورِ) زَمَنِ الشِّتَاءِ بِلَتْسِسٍ
لَهُ كَلَاءٌ وَقَدْ عَنَتِ الْأَرْضُ الثَّلُوجُ :

مَا لِلْمُشْرِوجِ الْخَضِرِ وَالْحَدَائِقِ
يَشْكُو خِلَافَهَا كَثْرَةَ الْعَوَائِقِ

أَقَامَ فِيهَا الثَّلَجُ كَالْمُرَافِقِ
يَعْتَقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ
وَهَذَا الْيَتِ مَبْنِيٌّ بِتَجَرِبَةٍ خَاصَّةٍ قَوِيَةٍ • وَمَا أَشْكُ أَنْ أَبَا الْعَلَاءِ
أَخَذَ مِنْهُ حَيْثُ قَالَ يَصِفُ بَرْدَ بَغْدَادِ :

وَالْمَاءُ يَرِيدُ لَا تَزَالُ نَوَاجِذِي
فِي مُنْتَضَاهُ سَوَابِحًا كَأَوَازِهِ
أَحْسِبُهُ أَخَذَ قَوْلَهُ (سَوَابِحًا) مِنْ صِفَةِ أَبِي الطَّيِّبِ الْخَيْلِ وَهَنْ
يَسْبَحُنْ كَنُذِي مَرَّةً مِنْ قَوْلِهِ :

حَتَّى عَبَرَنَ بِأَرْسَنَاسٍ سَوَابِحًا
وَقَوْلُهُ (كَأَوَازِهِ) - أَخَذَهُ مِنْ هُنَا - (يَعْتَقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ
الْبَاصِقِ) •

وَزَادَ قَوْلُهُ « مُنْتَضَاهُ » يُضَمَّنُ ذَلِكَ تَشْبِيهًا لِحَدِّ الْبَرْدِ بِحَدِّ
السَّيْفِ ، وَذَلِكَ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ (فِي مِثْلِ السُّدَى) •
وَنَعُودُ إِلَى آيَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ :

أَقَامَ فِيهَا الثَّلَجُ كَالْمُرَافِقِ
يَعْتَقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ

ثم مضى لاعاده من مفارق

بقائد من ذوبه وسائق

والتشبيه مأخوذ من معنى ما هو في معرض وصفه من الرياضه
والركض أعنى تشبيهه الذوب بالقائد والسائق • ويبدو لي أنه عنى
بالقائد ما يتقاطر من الثلج حين يكون عالقا بالصخور أو رؤوس الدثور
وبالسائق ما ينشق منه من وراء فينحدر له سائره •

كأنما الطخسور باغي آبق يأكل من نبت قصير لاصق
كقشر لك الحبر عن السهارق

المهارق الاوراق البيض شبه بها بياض الثلج • وهذا التشبيه منتزع من
صناعة أبي الطيب من الكتابة والخط والمراجعة والكشط • وقد نبه على مثل
هذا من إحسانه أبو منصور في فصله البارع الذي عقده له في يتيسر
الدهر •

وقل مكان مر به أبو الطيب وله يسجل انطبعا عن جوده
وطبيعة أرضه • من ذلك مثلا قوله يصف لبنان في معرض مدحه أبا علي
هرون بن عبدالعزيز الأوراجي :

يني وبين أبي علي مثله شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها علي مسالكي فكانها بياضها سوداء
وتشبيه شم الجبال بأبي علي كأن فيه إحياء بتشبيههن برجال ذوي
هبة وعنائم ؛ وتشبيه الجبل بالشيخ معروف في الشعر • ومنه (وهو
كالأصل) قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في عرائين وبله كبير أناس في بجاد مزمّل

ومن ههنا انتزع أبو الطيب وحى صورته ذات الرجال العَدَدِ وفد
شبهه رجاءه الضخَمَ البَعِيدَ بجبالِ لبنان ذاتِ العلوِّ يكسوها الشُج
الأبيض * ثم تذكر أن صُريفه إلى تحقيق هذا الرجاء إنما يكون عيهم *
وهنَّ عَقَبَات :

لَبِسَ التلوجُ بها على مسالِكي
فكأَتْهَا بِيَاضِهَا سَوْدَاءَ

ومثلاً قوله : يصف بادية الشام في الصيف :
تَوَهَّيَا الْأَعْرَابُ سَوْرَةَ مُتَشَرِّفٍ
تَذَكَّرُهُ الْبِيْدَاءُ ظِلَّ الشَّرَادِقِ

فذكرتهم بالماء ساعة غبَّرت
سَمَاوَةَ كَلْبٍ فِي أَنْوْفِ الْحَزَائِقِ
والشاهد هنا صورة الغبار وهو يُصِيبُ مع الحرِّ أنوفَ الجوع
المرتحلين - وأحسب أنه لم يخلُ ههنا من النَّظَرِ إلى أبي تساء في قوله :
مَنْ لَمْ يُقَدِّ فَيَطِيرَ فِي خَيْشُومِهِ
رَهَجُ الْخَمِيسِ فَلَئِنْ يَقُودَ خَمِيسًا

ثم انصرف أبو الطيب بعد إلى شيء من ذكر صفات الصحراء *
وكانوا يَرَوْنَهُ الْمَلُوكُ بَأْنَ بَدُوا
وَأَنْ نَبَتَ فِي الْمَاءِ نَبَتُ الْغُلَافِقِ
فهاجوك أَهْدَى فِي الْفَلَاحِ مِنْ نَجُومِهِ
وَأَبْدَى يَوْمًا مِنْ أَدَاخِي النِّقَاطِ

وَأَصْبَرَ عَنْ أَمْوَالِهِ ضَبَابَهُ

وَأَلْفَ مِنْهَا مُثْقَلَةً لِلدَّائِقِ

وبعض هذه الصفات التي خلعها على سيف الدولة من إلفِ شدة الحر والهجير والفتنة لو هجرنا ما كانت صفته هو وإلى ذلك أشار في قوله :

ذُرَانِي وَاتِّقَلَاةً بِلَا دَلِيلٍ

وَوَجْهِي وَالهَجِيرَ بِلَا لُثَامِ

فَإِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا

وَأَتَعَبُ بِالْإِنْسَاخَةِ وَالنِّقَامِ

عَيُونُ رَوَاحِلِي إِنَّ حَرَّتْ عَيْنِي

وَكُرْهُ بَغَامِ رَازِحَةٍ بَغَامِي

فَقَدْ أَرَدْتُ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ

سِوَى عَسَدِي لَهَا بَرَقَ النِّعَامِ

وَلَا أَمْسِي لِأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْقًا

وَلَيْسَ قَرِيٌّ سِوَى مُحْضٍ النِّعَامِ

وقد كثر النعماء على ذلك الزمان كثيراً في فلكوات بلاد العرب إلى مصر فيؤنسك الآن أن يكون قد انحاز كله إلى أعناق بلاد المنطقة الحارة ذات المضر - وقد جاء ذكره في شعر أبي الطيب كثيراً .

من ذلك قوله وقد نوسط أرض العرب في فرائه من كافور إلى الكوفة :

بُسِيطَةً مَهْلًا سَقِيتَ الْقِطَارَا
تَرَكْتَ عَيْنُونَ عَبِيدِي حَيَارَى

فَظَنُّوا النِّعَامَ عَلَيْكَ النَّخِيلَ
وَوَضَعُوا الصَّوَارَ عَلَيْهِ السَّارَا

فَأَمْسَكَ مَحَبِّي بِأَكْوَارِهِمْ
وَقَدْ قَصَدَ الضَّحْكُ فِيهِمْ وَجَارَا

وقد أعادَ الاشارة الى هذا الحادث الصغير لذي أضحكه هو واصحابه
في وَسَطِ أَحَاطَةِ الْمَهَالِكِ بِهِمْ ، في مَقْصُورَتِهِ (الاكلء ماشية انْخِيزَلَى)
فَقَالَ :

وَقَتَلْنَا لَهَا آيْنَ أَرْضُ الْعِرَاقِ فَقَالَتْ وَنَحْنُ بَنُرَبَانِ هَا
رَوَامِي الْكَفَافِ وَكِبْدُ التَّوْهَادِ وَجَارُ الْبَوَائِرَةِ وَادِي الْغُضَى
وَجَابَتْ بِسِيطَةِ جَوِّبِ الرَّدَاءِ بَيْنَ النَّعَامِ وَبَيْنَ أَلْهَا

وَذَكَرُ النِّعَامِ وَالْمَهَا هُنَا أَشْعَرُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي الْآيَاتِ الرَّائِيَةِ الَّتِي
تَقَدَّمَتْ لَهَا فِيهِ مِنْ صَوْرَةِ شَقِّ الصَّحْرَاءِ قِسْمِينَ . فِيهِ حَيَوَاتُهَا مُجَفَّلَاتُ ،
النِّعَامُ مِنْ هُنَا ، وَالْمَهَا مِنْ هُنَا .

وَسَرَدُ الْمَوَاضِعِ أَسْلُوبٌ قَدِيمٌ "الَا أَنْ" أَبَا الطَّيِّبِ أَضَآلَهُ وَحَرَاصُ
عَلَى إِیْصَالِنَا مِنْ تِيهِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْعِرَاقِ مَوْضِعٌ مَوْضِعًا .
وَأَحْسِبُ أَنْ مَدَّاحَ الرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَعَلُوا
مِنْ طَرِيقَتِهِمْ ذِكْرَ مَرَاكِزِ الطَّرِيقِ حَتَّى يَبْلُغُوا حَرَمَهُ اشْتَرِيفَ
وَالْحَرَامَ الْمَكِّيَّ . فَلَدَّوْهُ هُوَ أَوَّلًا مَعَ عِلْمِهِمْ بِدَوْنِ شَكٍّ

بمذهبِ القُدَماءِ ، إذْ قَلَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَرَأَ السُّعْلَقَاتِ وَعَرَفَ مِنْهَا أَمْثَالَ :

فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَّةُ الشَّرْبِ فَالشَّعْبَتَانِ فَلِإِيَّالَاءِ
وَفِي هَزِيَّةِ الْبُوصِيرِيِّ سَرْدٌ حَسَنٌ لِلْمَوَاضِعِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْحَرَمَيْنِ
فَقَالَ فِي آخِرِهِ :

هَذِهِ عِدَّةُ الْمَنَازِلِ لَا مَا عَدَّ فِيهِ السَّمَاكُ وَالْعَوَاءُ
فَكَأَنِّي بِهَا أَرْحَلُ مِنْ مَكَّةَ شَمْسًا سَمَاؤُهَا الْبِيدَاءُ
وَقَدْ انْتَقَلْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنْ مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
الْقَصِيحِ إِلَى مَدْحِهِ فِي اللِّسَانِ الْعَامِيِّ ، وَافْتَنَّ فِي ذَلِكَ شِعْرَاؤُهُ أَيْسَا
افْتَتَانٍ وَهَذَا بَابُ تَفْصِيلِهِ يَطُولُ وَهُوَ بَعْدُ خَارِجٌ عَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ
الْأَقْلِيَاءُ .

هَذَا ، وَالْقَصِيدَةُ الْمَقْصُورَةُ الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بِأَيَّاتٍ مِنْهَا هُنَا عَدَّ
فِيهَا أَبُو الطَّيِّبِ نَحْوًا مِنْ عَشْرِينَ مَوْضِعًا ، وَصَوَّرَ فِيهَا حَرَكَةَ انْتِقَالِهِ فِي
الصَّحْرَاءِ مَمْرُوجًا ذَلِكَ بِمَا كَانَ يَسَاوِرُهُ نَفْسُهُ مِنْ قَلَقٍ وَغَضَبٍ
وَرُوحٍ تَحَدٍّ .

وَافْتَنَّ فَجَعَلَ مَطْلِعَ الصَّبَاحِ مُؤَذِّنًا بُدْنُوًّا نَهَايَةَ فِرَارِهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ :
وَلَا حَ لَهَا صَوْرٌ وَالصَّبَاحُ وَلَا حَ الشَّغُورُ لَهَا وَالضُّحَى
وَصَوْرُ الشَّغُورِ مَوْضِعَانِ بِالْعِرَاقِ . وَإِذْ بَلَغَهُمَا وَهَسَا مِنْ مَعَالِمِ
النَّجَاةِ وَاقْتَرَابِ الْمَأْمَنِ ، التَفَتَ إِلَى مَا كَانَ قَدْ تَجَشَّاهُ مِنْ لَيْلِ الْجَدِّ
وَالْخَوْفِ قَبْلَهُمَا .

فِيَاكَ لَيْلًا عَلَى أَعْكَسٍ أَحْمَ الْبِلَادِ خَفَى الصُّوَى
 وَرَدْنَا الرِّهَيْمَةَ فِي جَوْزِهِ وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى
 لَيْسَتْ صِفَةُ اللَّيْلِ هُنَا مَذْهَبَ تَقْلِيدِ شِعْرِي وَلَكِنَّهَا تَجْزِئَةٌ
 تَحْسِبُ صِدْقَ إِحْسَاسِهَا ذِي الطَّابِعِ الْفَرْدِيِّ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَلَكِنَّا
 لَا نَقْبِلُ عَلَيْهِ بِالتَّأَمُّلِ النَّاقِدِ الْعَمِيقِ الْأَعْجَابِ لِمَا تَعُودُنَاهُ مِنْ عَدَمِ
 الْإِقْبَالِ عَلَى أَوْصَافِ اللَّيْلِ وَالشُّجُومِ وَالْقَمَرِ مِمَّا يَقَعُ كَثِيرًا بِلا طَابِعِ
 مُشَاهَدَةٍ أَصِيلَةٍ التَّجَرُّبَةِ عِنْدَ أَصْنَافِ الشُّعْرَاءِ * تَأْمَلْ قَوْلَهُ :

وَأَسْرَى فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَحَدِيدِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ
 وَقَوْلُهُ :

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعَشٍ فِي دُجَاهَا
 خَرَّائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حَدَادِ

وَقَوْلُهُ :

مَا بَالُ هَذِي الشُّجُومِ حَائِرَةٌ
 كَأَنَّهَا الْعُمَى مَالَهَا قَائِدُ

وَقَوْلُهُ :

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّمَتُّ رَأَيْتَهُ
 يَهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبًا
 كَالشَّمْسِ فِي كِبَرِ السَّمَاءِ وَضَوْوُهَا
 يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبًا

وَقَوْلُهُ :

كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
 حَفَاءٌ بِهِ مِنْ جَنَانِهَا ظُلُمٌ

هذا . وفي شعر أبي الطيب انطباعات " قوية دقيقة " مختصرة " عن البلاد
التي تهادها كالذي مرَّ من صفة غبارِ سماوةٍ كُتِبَ وجبالُ لُبْنانٍ
وثُلُجِ الشامِ وصلَّحَ رؤسُ جباله وكقوله يَذْكُرُ ظهورَ الربيعِ عند عيد
النيروز في بلادِ فارس .

ما لَبِئْنَا فِيهِ الْأَكَالِيلَ حَتَّى لَبِسْنَهَا تِلَاعَهُ وَنَجَادَهُ
وَكَقُونَهُ فِي النَّيْلِ :

وَسَكَّتْ بِهِ الْيَدَاءُ حَتَّى تَغْمَرَتْ

من النيلِ واستدرت بظِلِّ الْمُقْطَمِ

وفي قوله (تغمّرت) اشعار بكثرة ماء النيل وجسمته وفي قوله
(استدرت بظل المقطم) اشعار بخصب مصر وخفض العيش الذي لقيه فيها وقد
صرح بذكر هذا الخفض . وجعله سبب سقّيه في اقتصيدة اميسية الرائعة
التي وصف فيها الحمى فقال :

وزائرتي كأنَّ بها حياءٌ فليس تزورُ إلّا في الظلام
بذلتُ لها انظارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يَضِيقُ النِّجَادُ عَنْ نَفْسِي وَعنها فتوسّعته بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غَسَّلتَنِي كأنّا عاكِفانِ على حرام
كأنَّ الصُّبْحَ يَطرُدُها فتَجَرى مدامِعُها بأَرْبَعَةِ سِجَام
أراقبُ وَفَتَّها من غيرِ شَوْقٍ مراقِبَةً المنسوقِ المُسْتَهام
ويَصْدُقُ وَعَدُّها والصَّدْقُ شر إذا ألقاك في الكُرْبِ العظام

وهنا تأمل دقيق . وليس وصف الحمى بأبعد . في باب الطبيعة عن
وصف الأسدِ والنعامِ ولا سيَّما ونَحْنُ الآن نَعْلَمُ أَنَّ سببها حيوانٌ

صَغِيرٌ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ ، وَإِنَّمَا تَحِسُّ النُّفُوسُ أَثَرَهُ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَمَنْ جَيِّدٌ مَا يَجِيءُ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ مُخْتَصِرًا لِمُلَاحَظَاتِهِ وَإِنطِبَاعَاتِ تَجَارِبِ الطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِهِ مَا يَقَعُ فِي بَابِ النِّسَبِ وَبَعْضِ أَغْرَاضِهِ الْأَخْرِيَّاتِ مِنْ صِفَاتِ الْحَيَا وَذِكْرِ النَّسَائِمِ ، مِثْلُ قَوْلِهِ :

رَعَى اللَّهُ عَيْسَا فَارَقْتَنَا وَفَوَّقَهَا
مَهَا كَلَّهَا يُوَلَّى بِجَفْنَيْهِ خَدَّه

بَوَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ كَأَنَّهُ
وَقَدْ رَحَلُوا جِيدَ تَنَازُرِ عِقْدِهِ

إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاهِ
نِزَاحِ مِسْبِ الْغَانِيَاتِ وَرَثَدِهِ

وَالشَّاهِدُ هُنَا هَذَا الْأَرْجُ الْعَطِيرُ الْمُتَنَازِحُ مِنَ الرَّئِيسِ وَتُخَالِطُ
نَسِيمَهُ الرَّقِيقَ عُظُورُ الْغَانِيَاتِ وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ هُنَا لَمْ يَخْلُ مِنْ أَخْذِ
مِنْ عُلُقَةِ حَيْثُ قَالَ ، مِنْ مِيمَتِهِ الْفَرِيدَةِ :

يَحْمِلُنَ أَكْثَرُجَّةً نَضَخَ التَّعْبِيرُ بِهَا
كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومٌ

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

فَدِينَاكَ مِنْ رَبِّعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبًا
فَأَنْتَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَ

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ نَا
فَوَادًا لِعِرْفَانِ الرِّسْمِ وَلَا تُبَّا

جعل أبو الطيب ههنا رُبْعَهُ رَمْزًا للكون كُلتَهُ وللطبيعة كُلتَهَا ومحبوبته
حيث كانت مقيمة به تطلع وتغيب :

نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كِرَامَةً
لِسَنِّ بَانَ عَنْهُ إِنْ ثَلِمَ بِهِ رَكْبًا
والمعروف عند الربوع الوقوف والاستيقاف كقول امرئ القيس :
فَمَا تَبُكُّ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
وقوله :

وقوفاً بها صَحْبِي عَلَى مَطِيهِمْ
وقول أبي الطيب (نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي) فِيهِ إِفْصَاحٌ بِتَجَرِبَةٍ
فَرْدِيَّةٍ سِوَى الْمُتَوَاضِعِ عَلَيْهِ فِي نَعْتِ الْأَطْلَالِ •
وَنَحْنُ لَا نَسْلُكُ بَعْدَ الْآنَ نَتَرَجَّلُ مَعَ الشَّاعِرِ وَنَمْشِي وَحَوْلَنَا
كَوْنُ الطَّبِيعَةِ وَالذِّكْرَى الْعَرِضَةُ وَلَا يَخْلُو مِثْلُ هَذَا الشَّيْءِ مَعَ مَا
يُصَاحِبُهُ مِنْ تَأْمَلٍ حَزِينٍ وَادِّكَارٍ مِنْ نَوْعِ نَشْوَةٍ وَارْتِيَاكِ فَوَادٍ
وَوَاقِعَةٍ حَيَّةٍ •

وَاحْسِبْ أَنْ مَنَشَأَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ مِنْ كَوْنِ أَبِي الطَّبِيبِ قَدْ كَانَ مَعَهُ
صَحْبٌ يَشَارِكُونَهُ النَّزُولَ وَالْمَشْيَ ، لَا وَاقِعِينَ عَلَيْهِ مَطِيَّهُمْ كَمَا عِنْدَ
امْرَأَةِ الْقَيْسِ وَطَرْفَةٍ ، وَلَا مُسْتَوْقِفَهُمْ هُوَ أَوْ دَاعِبَهُمْ إِلَى أَنْ يَعْجُجُوا
وَيَعْرِجُوا كَمَا هُوَ الْمَذْهَبُ فِي النَّسِيبِ •

وَمَصْدَرُ النَشْوَةِ وَالْارْتِيَاكِ هَذَا الْغَيْثُ الَّذِي حَسَّنَ مَنَظَرَ الْأَرْضِ
وَطَابَ نَسِيمُهَا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى مَا أَوْقَعَهُ بِمَكَانِ الرَّبْعِ مِنْ تَعْسِيَةِ مَعَالِمٍ
وَمَحُوِ آثَارٍ :

تَذُمُّ السَّحَابَ الْغُرَّ فِي فَعْلِهَا بِهِ
وَنَعْرِضُ عَنْهَا كَمَا طَلَعَتْ غَيْبًا .

قوله الْغُرَّ فِيهِ فَرَحَةٌ بِالسَّحَابِ وَحُبٌّ لَهُ .
وَلَا غُرَّوْا فَبِالْبَادِيَةِ نَشَأَ وَكُحِبَ أَهْلُهَا الْغُيُوثُ وَبُثِرَ وَقْتُهَا أَحَبُّهُ .
وَهُوَ الْقَائِلُ :

فَقَدْ أَرَدْتُ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ سِوَى عَدَدِّي لَهَا بِرَقِّ الْغَمَامِ
وَهُوَ هُنَا يُخَاطَبُ السَّحَابَ مُخَاطَبَةَ الصَّدِيقِ الَّذِي نَهَ بُوْدَهُ
الْعَهْدُ الطَّوِيلَ يَذُمُّهُ لِلَّذِي فَعَلَ بِالرَّبْعِ وَيُعَاتِبُهُ وَيَعْرِضُ عَنْهُ وَهُوَ
- أَيِ السَّحَابِ - عَلَيْهِ مُتَقَبِّلٌ بِلَمَعَةِ الْحَرِّ الْأَغْرَّ الْجَمِيلِ .
وَهَلْ تَنَكَّرَ هُوَ لِلْسَّحَابِ بَعْدَ هَذَا الْوَدِّ كَمَا هُوَ شَأْنُ رُفَقَاءِ
هَذِهِ الدُّنْيَا فِي التَّنَكُّرِ ؟

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلًا تَقَلَّبَتْ
عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كَذِبًا
ثُمَّ يَأْخُذُ أَبُو الطَّيِّبِ فِي الْمَرْجِ بَيْنَ حَاضِرِ ارْتِيَاكِهِ لِلرَّبْعِ وَالْأَصِيلِ
وَالضُّحَى وَالنَّسِيمِ وَغَايِرِ مَا كَانَ ، مِنْ عَهْدٍ مُودَّةٍ الْحَبِيبِ وَمَا يَثِيرُهُ
ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ مِنْ طَرَبٍ ، وَمَا تَعَوَّدَ بِهِ خِفَّةُ ذَلِكَ الطَّرَبِ (وَقَدْ
أَخَذَتْ الْآنَ تَتَقَدَّمُ بِهِ السَّنُّ) إِلَى سَالِفِ عَصْرِ صَبَاحِ أَيَّامٍ كَانَ
غُلَامًا يَتَوَثَّبُ وَيَتَّبُ وَشَبَابًا يُقَدِّمُ إِقْدَامَ الْآتِي . أَيِ السَّيِّلِ أَوْ
كَمَا قَالَ :

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَأَنِّي لِي
سِوَى مَهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَر

وهذا كما ترى من أجود ما يقال من صفة حساسة الشباب وذكر
السيل فيه ما قدّمنا ذكره من صفة الطبيعة ضمن التشبيه *

وكيف التذاذي بالأصائل والضحى

إذا لم يعد ذلك النسيم الذي هبّا

ذكرت به وحلاً كأن لم أفز به

وعيشاً كأنى كنت أقضعه وشبّا

البيت الاول فيه إعلامنا انه التذ هبوب النسيم وصالته وضحا

والبيت الثاني فيه الصورة التي زعمنا انه انتزعها من تذكر آدم صباه *

وفتاة العينين قتالة الهوى

إذا نفحت شيخاً روائحها شبّا

لها بشر الدر الذي قلدت به

ولم أر بدرأ قبلها قلده الشهبّا

وكان عهد أبى الطيب بهذه الفاتنة غير بعيد ، وكان قوله إذا نفحت شيخاً

روائحها شبا - وهذا شبيه بقوله :

تفأوح منك الغانيات ورنده

وقوله :-

ولم أر بدرأ قبلها قلده الشهبّا

فيه معنى ما ذكرناه من قوة احسسه بضوء البدر واللق الشجوم
وانعكاس روح هذا المعنى في تعبيره - وصورة الحسناء ههنا لا يخفى
أنها ذات اللق وهجاج انتزعه الشاعر من ضوء الشمس والبدر والدرارى
والشهب *

ونأمل قوله :

وَمَنْ يَصْحَبِ اسْمَ ابْنِ اَعْيَدٍ مُحْسَدٍ
يَسِرُّ بَيْنَ اَنْيَابِ الْأَسَاوِدِ وَالْأَسْنَدِ

يَسِرُّ مِنْ اسْمِ الْوَحْيِ يَعَاجِزِ
وَيَعْبُرُ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ عَلَى دُرْدِ

كفانا . ربيع العيس من بر كاته
فجاءته لم تسمع حذاءً سوى الرعد

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه
كرعن يسبت في اناء من الورد

وهنا شعرنا بأن سفره كان نهاراً في ظلّ الغمام وصوت الرعد البعيد
غير المرعب لبعده ، كأنما هو حادٍ يسوق ابله . وقد نشطت لاعتدال
الهواء ولطيفه وشمول النعمة والرخاء ، حتى انهن قد داخلهنّ الحياء
لما رأين كثره الماء ، ووجدن انفسهن مترفاتٍ قد رقت شفاههنّ حتى
صرن كالسبت وهو جلد الماعز الرقيق المدبوغ وجعلن يكرعن
بها من غدران يحف بهن الزهر . كأنهن يكرعن من آنية فضة
تزين حواشيها الورود .

كأنّا ارادت شكرنا الأرض عنده
فلم يخلينا جَوْ هَبْطَنَاهُ مِنْ رِقْدِ

وعنى بالرقد هنا الجبال والارج الحسن . وشكر الأرض
تفحّتها بالخضرة والنشوار - كما قال ابن الرومي :-

شَكَرْتَ نِعْمَةَ الْوَلِيِّ عَلَى الْوَسِيِّ

ثُمَّ الْعَهَادِ بَعْدَ الْعَهَادِ

وقد نعلم ان أبا الطيب كان من رِوَاةٍ شِعْرِهِ وما خلا ههنا من إشارة خَفِيَّةٍ الى ما قد قال .

لَنَا مَذْهَبُ الْعُبَّادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ

وإِتْيَانِهِ نَبْغِي الرِّغَائِبِ بِالزَّهْدِ

رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ

بَارِجَانِ حَتَّى مَا يَسْنَا مِنَ الْخُلْدِ

تَعَرَّضُ لِلزَّوَارِ أَعْنَاقُ خَيْلِهِ

تَعَرَّضُ وَحَشٍ خَائِفَاتٍ مِنَ الطَّرْدِ

وَتَلْقَى نَوَاصِيهَا التَّمَايَا مَشِيحَةً

وُثُودَ قَطَا صُمٍّ تَشَايَحُنَ فِي وَرْدِ

قالوا جعل القطا صُمًّا لاهتمامها بالطيران وانشغالها به عن كلِّ شئٍ سواه ومن تأمَّل هذه الأبيات الدالِّية ما صرَّحَ فيه أبو الطيب مِنهَا بِذِكْرِ الطَّبِيعَةِ مِنْ رَيِّعٍ وَغَيْثٍ وَزَهْرٍ وما لم يُصَرِّحْ ولكن جاءَ بِهِ فِي مِعْرَاضِ الْمَدْحِ يَجِدُ أَنَّهُ ضَمَّنَهَا تَجَرُّبَةً سَقَرَهُ إِلَى ابْنِ الْعَمِيدِ كُلُّهَا - صَوْتُ الْأَسْوَدِ ، وَدَبِيبُ الْحَيَّاتِ ، وَصُورُ الْوَحْشِ الْنَافِرَاتِ وَضُرُوبُ النَّقَطَا وَالطَّيْرِ الْوَارِدَاتِ الْمِيَاهِ ... ثُمَّ ثَقُورُ نَفْسِهِ هُوَ شَيْئًا مِنْ ابْنِ الْعَمِيدِ . وقد ذكروا أَنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ عَابَ عَلَيْهِ قَصِيدَتَهُ الرَّائِيَّةَ .

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا

فإنَّ صحَّ هذا فهوَ لا ريبَ من أسبابِ النفور • وقد كان ابنُ العميد
من أكابرِ الكتابِ في زمانه - ولا يخلو مذهبه من كلفةٍ وظلٍّ ثقیلٍ
أشبهَ شيءَ مع بعدِ القياسِ بسوجةِ الشعرِ الحديثِ التي تجتاحنا الآن •
هذا واحسب أن أبا العلاء قد أخذ من أبي الطيبِ الداليةَ هذه
في وصفه سقَّره الى العراقِ حيث قال :-

وبتَ بُمُسْتَنِّ الرایمِ راقِداً
يُطَوِّفَنَّ حَوَلىَ من فرادى ومن شَنعٍ
فهذا كأنه مؤكِّد من قول أبي الطيبِ يسير بين أنيابِ الأسودِ
والأسدِ • وحيث ذكر الأبل فقال :-

لقد زارني طَيْفُ الخيالِ فهاجنى
فهل زار هذى الإبلَ طَيْفُ خيالِ

لعل كراهها قد أراها جذابها
ذَوَائِبَ طَلَحَ بالعقيقِ وضالِ
فهذا كأنه تَفَرِّيعٌ من قول أبي الطيبِ « استَحْيِنَ الماءَ يعرض نفسه »
وقوله « كَرَعَنَ بِسَبْتٍ في إناءٍ من الوردِ » • ومما يُصَحِّحُ ما نزعناه
هنا ويؤكِّده قولُ أبي العلاء :

وأعجبها جَذْبُ العضاهِ أنوفها
بمِثْلِ إِبَارِ حُدَّدَتْ ونِصَالِ
فجعل الأنفَ مكانَ المشافرِ وجعل العضاهَ وشوكها مكانَ الوردِ
وفي الوردِ شوكٌ إلا أنه رقيقٌ لطيفٌ غيرُ بدويٍّ خشنٍ كشوكِ
السيالِ والطلحِ وهلم جرا •

ومما يدخل في باب الطبيعة . وان بدا كأنه غير داخل فيها . ما كان
أبو الطيب يجيء به في شعره من حور الحركة والمنظر الي تبدو
معها - مثل قوله :-

وتضحى الحصون المشخيرات في الذرا
وخيلت في أعناقهن فلائيد
فهذا منظر ذو حركة ملتبس فيه الإنسان وعكسه بالطبيعة كل
التباس . ونحو منه قوله الذي مر آتفا :

حتى عبرن بأرسل سوابحاً
ينشرن فيه عائم الفرسان
فكأنهن سفن لهن قلوب كما ترى .
وقوله :

كلما رحبت بنا الرؤوس قلن
حب قصدا وأنت السبي
فقوله رحبت منبى بحركة لما فيه من قدوم وترحيب . ثم فيه
معنى اتساع الرؤوس وبهجة وانضباع ذلك في فؤاد الشاعر مع سرعة
تجاوزه له :
وقوله :-

فلما تجلنى من دلول وصنجة
علت كل صود راية ورعيل
ولك ان تتخيل هول هذا المنظر وروعته .

على طَرُقٍ فيها على الطُّرُقِ رَفْعَةً
وفي ذِكْرِهِا عند الأَنْيسِ خُثُول
ورُغْنٍ بنا قَلْبَ الثُّرَاتِ كَأَنَّمَا
تَخِرُهُ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سَيْتُول
يُطَارِدُ فِيهِ مَوَاجَهُ كُلُّ سَابِحٍ
سَوَاءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ وَمَسِيل
تَرَاهُ كَأَنَّ الْمَاءَ مَرَّ بِجَسْمِهِ
وَأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحَدَهُ وَتَلِيل
منظر الجبال على رؤوسهن الرايات والخيلُ مَدَّةُ الأفقِ • ثم صورة
الخيول والنُرسَانِ المندفعةِ الى نَهَرِ الثُّرَاتِ أَمْثَالِ السَّيْتُونِ •
والتشبيهُ نَفْسُهُ يَتَضَمَّنُ تَجَرُّبَةً من الشَّاعِرِ لِنَظَرِ السَّيْتُونِ وَهِيَ تَخِرُهُ
في نهر كبيرٍ ثم بَعْدَ دِفَاعِ أوائلِ مَلْتَقَاهِ بِهِ تَمْتَزِجُ أَمْوَاهُهَا وَتَيَّارُهَا
بِأَمْوَاهِهِ وَتِيَّارِهِ وَمِثْلُهُنَّ هَوْلَاءِ انْفِرْسَانٍ وَخَيْلُهُنَّ مَنْدَفِعِينَ حَتَّى إِذَا
صَارُوا إِلَى الْمَاءِ تَفَرَّقُوا فِيهِ يَدْفِعُونَ مَوَاجَهُ وَتَدْفِعُهُ • وَقَدْ غَلَبَ
اتساعُ التَّهَرِّ عَلَى مَنَظَرِ قُوَّةِ انْحِدَارِهِ الْعُظِيمَةِ مِنْ قَبْلِ • ثُمَّ صَارُوا
مِنَ النَّهْرِ جِزَاءَ خِيُولِهِمْ فِيهِ سَابِحَاتٌ ، كَأَنَّ أَجْسَامَهُنَّ قَدْ اقْتَضَعَهَا الْمَاءُ فَذَهَبَ
بِهَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ كُلِّ فَرَسٍ إِلَّا رَأْسُهُ وَغُنْقُهُ ضَافِيًا بِهِيَ عَلَى
الْمَوْجِ كَأَنَّهُ مِنْ أَفْرَاسِ الْبَحْرِ الَّتِي كُنَّا حَتَّى زَمَانٍ قَرِيبٍ نَرَى
صُورَهُنَّ مُتَفَرِّقَاتٍ هَكَذَا عَلَى عَرَضِ النَّيْلِ • هَذِهِ الصُّورَةُ نَادِرَةٌ "مذهلة"
ذات انطباعٍ نَفْسِيٍّ دَقِيقٍ •

وقد قال ابن الأثير في باب موازنته بين أبي الطيب والطائين :-

« ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان
 فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه » وليته قال : وجنائه فان رؤية
 القنب أعم وادق من رؤية البصر ولذلك قال تعالى : جل من قائل :
 « فإتوها لا تعصوا الأَبْصَارَ ولكن تعصوا القلوب التي في الصدور » وقال
 سبحانه وتعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع
 وهو شهيد » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله مع رؤية بصره بصيرة - ولم تكن
 الجيوش في زمانه تحارب من وراء جدار الا عند الحصار • وكان ولع ابي
 الطيب ينعت حركتها عظيما وما أحسب مصدر ذلك الا أنه كان
 يحب الهواء الطلق مع حركة المجال الرحيب ... فالذي رأينا من صورة
 الخيل قلائد حول ذرأ الحصون ومن صورهن وهن يثنين كل
 طود كأنهن رياح حققن بغصن رطب وإذ هن
 يعبرن أرسناس وينثرن فيه العمائم وإذ هن يعلتون الهضاب
 وعليهن الرايات وإذ هن في الفرات كل منهن مقل •

« رأس وحده وتليل » •

كل هذه صور من الطبيعة الطلقة امتزجت بها حركة الشاعر
 والمشاهد الرائعة التي ملكت عليه فؤاده وبصره •

تأمل قوله يصف جيوش سيف الدولة وخيله :

تبارى نجوم القذف في كل ليلة

نجوم له منهن ورد وأدھم

يَطَّانَ من الأبطال من لا حائله

ومن قصد المُرَّان ما لا يقوم

هذه الصورة الفظيعة منظر بقايا معركة * ولعمري ان امثالها لنراها
مُصَوَّرَة في رسم الفنانين الاوربيين فنَعْجَبُ بها وما هي لو قد تَقَرَّسنا
الا لأن الاصل الذي أخذ منه اسلامي ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به
مستسئون عليهم العنائم جمعهم رمزا لعسكر نابليون وما ارى أنه صنع ذلك
الا بضعتنا ردت إلينا مثلا للفنان الاسباني غوية صورة فرسانها مغاربة
من قول ابي الطيب ونحو قول علقمة في الزمان القديم :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضُ

بَشِكَتْهُ لَمْ يَسْتَلِبْ وَسَلِبِ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُ هَنٍّ دِيبِ

فَلَمْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِلْجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبِ

وَالَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّهُ

بِمَا ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبِ

هذا ونعود الى ابيات ابي الطيب :-

يَطَّانَ من الأبطال من لا حائله

ومن قصد المُرَّان ما لا يقوم

فهنَّ مع السيدان في البرِّ عُسْلُ

وهن مع النِّينان في الماءِ عَوْمُ

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة النظيمة مَنْظَرُ بَقَايَا مَعْرَكَةٍ * وَلَعَمْرِي إِنْ أَمْثَلَهَا لَنَرَاهَا
مُصَوِّرَةٌ فِي رَسْمِ الْفَنَانِينَ الْأَوْرَبِيِّينَ فَنَعَجَبُ بِهَا وَمَا هِيَ لَوْ قَدْ تَقَرَّرْنَا
إِلَّا لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ إِسْلَامِيٌّ يَنْظُرُ إِلَى نَحْوِ هَذَا الَّذِي اسْتَشْهَدْنَا بِهِ
مُسْلِمُونَ عَلَيْهِمُ الْعَنَائِمُ جَعَلَهُمْ رَمَزًا لِعَسْكَرِ نَابَلْيُونِ وَمَا أَرَى أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ
إِلَّا بِضَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا مِثْلًا لِلْفَنَانِ الْإِسْبَانِيِّ غَوِيَّةَ صُورَةٍ فَرَسَانَهَا مَغَارِبَةٌ
مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ وَنَحْوِ قَوْلِ عُلُقَمَةَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضُ

بَشِكَتَهُ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيلِ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُ هَنٍّ دَيْبِ

فَلَمْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِلْجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبِ

وَالَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّهُ

بِمَا ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبِ

هَذَا وَنَعُودُ إِلَى آيَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ :-

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَبْضَالِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

فَهَنٍّ مَعَ السَّيْدَانِ فِي الْبَرِّ عُسْلُ

وَهْنٍ مَعَ النَّيَّانِ فِي الْمَاءِ عَوْمُ

وهُنَّ مع الغزلان في الوادِ كَمَنَّ

وهن مع العقبانِ في النِّقَرِ حوَمَ

وقد يخيل للمرء أول وهلة أن هذا مَجْنِيءٌ به على مذهب أربالعه والله
در ابن الأثير اذ فَطَنَ الى أَنه ما كان الا وَصَفًا عن مشاهد من
قلب بصير ♦

وباب الحروب في شِعْر أبي الطيبِ كبيرٌ . ربما خرج بنا منا نحن
بصدده ، فلتسع الى ما وقع فيه مثابسا للطبيعة إناعا مكتفين بهذا التقدير الذي
مرّ ومشيرين الى امثاله مما وصف ابو الطيب ركوب القلث - كالايات
التي استشهدنا بها من عبور أرسناس والفرات وكقوله :

تَلْقَى بِهِمْ زَبَدَ التَّيَّارِ مُقَرَّبَةً

على جَحَافِلِهَا مِنْ نَضْجِهِ رَبِّهِ

وليست المقربة ههنا بخيل وانما هي سَفْنٌ واستعار لها جحافل أي
شِفَاهًا كما للخيل شِفَاهٌ والرَّثَمُ بياض في الشفة العليا شَبَّه به بياض
الموج ♦

والموج مما يشبه بالخيول كثيرا ♦

دُهُمٌ فَوَارِسُهَا رُكَّابُ أَبْطُنِهَا

مَكْدُودَةٌ وَيَقْوَمُ لَابِهَا الْأَنَامُ

وكما وصف أبو الطيب السفن صنع كذلك أبو العلاء - وذلك قوله :

على نَجَاجَةٍ مِنَ الْفِرَّصَادِ أَيْدِهَا

رَبِّهِ الْقَدُومُ بِأَوْصَالٍ وَأَضَالَعِ

سارت فزارت بنا الأَنْبَارَ سَالِمَةً
تَرْجَى وتُدْفَعُ فِي مَوْجٍ ودَفَاعٍ

وصورة المجذاف والجهد اوضح في قول ابى الطيب :

دُهُمٌ فَوَارِسُهَا رُكَّابُ ابْنِهَا
مَكْدُودُهُ وَيَقُومُ لَابِهَا الْأَلَمُ
واحساس الاعشى بحركة القارب وموسيقا لطمه التيار اضرافه أدق
في قول أبى العلاء :

سَرَتْ فزارت بنا الأَنْبَارَ سَالِمَةً
تَرْجَى وتُدْفَعُ فِي مَوْجٍ ودَفَاعٍ

ونسبق بَعْدُ فضيلة على اللاحق . والله تعالى اعلم .

ولأبى الضيف في الصيد والكلاب والطرد قِطْعٌ وأراجيز لا تخلو من
احساس الطبيعة واحسان وصفها . من ذلك ما تمثلنا به آنفا من قوله :
ما لسروج الخُضْرِ والحدائق يَشْكُو خلاها كثرة العوائق
ومنها :

ولا لغير الغاديات الهطائل	ومَنْزِلٌ ليس لنا بمنزِلٍ
مُحَلِّلٍ مِلْوَ حَشٍ لم يَحَلِّل	نَدْرِي انْخُزَمِي ذَفَرِ القَرْنَفِل
مُحَيِّنِ النفسِ بَعِيدِ السَّوْءِل	عَنْ لَنَا فِيهِ مَرَاغِي مُغْزِل
وعادة العُرَى عن التفصيل	اغذاه حَسَنٌ الْجِيدِ عن لُبْسِ الحلي

ثم اخذ بعد في نعت كلبه :

لَهُ إِذَا أَدْبَرَ لِحَظِّ السَّقْبِل

كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ سَجَنَجِل

يُتَقَعَى جُلُوسُ الْبَدْوَى الْمِصْطَلَى يَكَادُ فِي الْوُثْبِ مِنَ التَّقَتِّلِ

يَجْمَعُ بَيْنَ مَتْنِهِ وَالْكَلْكَلِ

ذِي ذَنْبٍ اجْرَدٍ غُرِّ اعْزَلِ

ثم اخذ بعد يصف قتاله مع الغزال حتى اصطاده • وقد عيب عليه قوله :-

كَانَتْهُ مِنْ عَلِمِهِ بِالْمَقْتَلِ عَلَّمٌ بِقِرَاطٍ فَصَادَ الْأَكْحَلِ

فقالوا إن الاكل ليس بمقتل - وعندي ان ابا الطيب ما اراد الا ان، كلبه اصطاد عليه الغزال ولم يقتله حتى ذكّاه هو فهذا علمه بالمقتل أنه تجنبه والله تعالى اعلم •

وقال في كلب آخر وذكر المنظر وكان جبليا :

وَشَامِخٌ مِنْ الْجِبَالِ أَقْوَدُ

فَرْدٍ كَيَافُوحِ الْبَعِيرِ الْأَصِيدِ

تأمل هذه الصورة خنزوانة هذا الجبل الشبيه بأعلى راس البعير وهو يرغو ويتشامخ •

يُسَارُّ مِنْ مَضِيقِهِ وَالْجِلْمَدِ

فِي مِثْلِ مَتْنِ الْمَسَدِ الْمُعْقَدِ

وهنا تجربة ومشاهدة • وما أحسب احدا جرب مررات الجبال الا يرى جودة ما ذكر ابو الطيب ههنا •

ثم اخذ في وصف الصيد وكيف ثار الخشف من مرعاه الاخضر النضر الندى فأصابه الحتف ، ولكل أجل كتاب •

فثار من اخضر مَعْطُورٍ ندى
كأَنَّهُ بدء عِذارٍ الأَمْرَدِ
فلم يَكْدهُ الا لَحْتَفٍ يَهْدِي

ومن قطعة المَعْجَبات ، وهي ما يلحق بباب الصيد قوله يصف
عين باز :

إذا نَظَرَ البازُ في عِطْفِهِ كَسَّتَهُ شُعاعاً الى المنكب
وهذه صورة ناطقة •

وباب الشَّراب يلحق بباب الصَّيد ، ولم يَكُنْ أبو الطيب بصاحب
شراب وَلَكِنْ له في ذلك البَيْتُ والبيتان ، وقد يُحَسِّن كلَّ الاحسان
كعادته فيسا يقول . مثلاً :

وَوَقَّتِ وَفَى بالدَّهْرِ لى عند واحدٍ
وفى لى بأَهْلِيهِ وزادَ كَثِيراً
شَرِبْتُ على استِحسانِ ضوئِ جِينِهِ
وزَهْرٍ ترى للماءِ فيه خَريراً

وقوله :-

أَحِبِّدْ حمصاً الى خُناصرة	وكلد نَفْسٍ تُحِبُّدْ محياها
حَيْثُ التقى خددها وتَفاح لُبنان	وثَغْرى على حمياها
وصِفْتُ فيها مَصِيفَ بادِيَةِ	شَتَوْتُ بالصَّحْصَحانِ مَشْتاها
إِنْ أَعْنَبْتُ رَوْضَةَ رَعِيناها	أو ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوناها
أو عَرَضْتُ عائَةَ مَقْرَعَةِ	صِدْنا بأخْرى الجِيادِ أوْلاها
والخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وطاردة	تَجَرَّد طُولى الثَّقنا وقَصْراها

وما أَظُنْ أن أحدا اثبت صورة تَفَاحِ لَبَنانٍ كما فَعَلَ أبو الضَّيْبِ ههـ
وفي هذه القصيدة لَفَتَاتٌ أُخَرٌ بَارِعَاتٌ جَدًّا - مثل قوله :

تَعُومُ عَوْمَ القِذَاةِ فِي زَبَدٍ
مَنْ جُودٍ كَفَّ الأميرُ يَغْشَاهَا

والصورة مُنْتزَعَةٌ مِنْ إزْبادِ السَّيُولِ وما يَطْفُو عَلَيْهِ مِنْ غُثَاءٍ •
وقوله :-

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضْدَ الدَّوْلَةِ فَتًّا خَسِرُوا شَيْئَهَا
أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَأَنَا لِدُؤَةٍ ذَكَرْنَهَا
تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الْكَلَامِ لَنَا كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عِظَاهَا
وهذا موضعُ الاستشهادِ وَفِي ضِيَّهِ مَعْنَى مُشَاهِدَةٍ سَحَابِهِ كَبِيرَةٍ تَبْرُقُ
وَتَرَى صُغَارَ السَّحْبِ نَحْوَهَا مُرْقِلَاتٌ • وَعَيْنُ هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ
الَّذِي مَرَّ آنِفًا :-

تَلَاكَ وَبَعْضُ الغَيْثِ يَتَّبِعُ بَعْضُهُ
مَنْ الشَّأْمِ يَتَلَوُ الحَاذِقُ الْمُتَعَلِّمُ
وَمِمَّا جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْقَنْصِ وَذِكْرِ اللَّيْلِ وَالصَّيْدِ وَالشَّرَابِ قَوْلُهُ :-
تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ
مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجَرَّى السَّوَابِقِ

وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَقْتُلُونَ قَنِيصَهُمْ
بِفَضْلَةٍ مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْفَارِقِ
تأمل هنا تَسْجِيلَهُ لِيَنْ ثَرَى الثَّوِيَّةِ وَطَيْبَ مَسِه - وَوَازِنَ بَيْنَ هَذَا
قَوْلِهِ الَّذِي مَرَّ آنِفًا :

لَمْ تَفْتَقِدْ مِنْكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى نَشَقٍ

وقوله :-

كَأَنَّ الْجَوَّ وَعَثَ أَوْ خَبَارَ

الوعث الرمل الذي تغيب فيه الارجل ، هكذا شرحه العكبري ، والخبار الارض المليئة - لينا تسوخ فيه الاقدام كما يبدو من السياق ، وهذا خلاف الشئ الذي كانه عنبر في المرافق بلا شك . وقبل الشطر الرائي الذي استشهدنا به آخرا قوله ، وفيه روح ما ذكرناه من خلط منظر الطبيعة بحركة القتال :

فَأَقْبَلَهَا الْمَرْجُ مَسْوَمَاتٍ ضَوَامِرَ لَا هِزَالَ وَلَا شِيَارَ
وقوله لا شيار أي لاسمان
تثيّرٌ على سلميةً مسبطراً

أي عجاجاً مسبطراً أي متدا قال الآخر يصف سير ناقته :
ومن سيره العنق المسبطر والعجفية بعد الكلال
هذا

تثيّرٌ على سلميةً مسبطراً تناكر تحته لولا الشعار
عجاجاً معشر العقبان فيه كأنَّ الجوّ وعَثَ أَوْ خَبَارَ
ومما يلفت النظر اليه ههنا استكمال الصورة المروج
والعجاج والعقبان . والخيل بطبيعة الحال ، في مقدّمة المنظر .
ونعود الى آيات القافية :-

وليلاً توسدنا الثوية تحته

كَأَنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرَ فِي الْمُرَافِقِ

بلاد" إذا زَارَ الحِسانَ بغيرها

حَمَى تَرْبَهَا ثَقَبَتْهُ لِمَخَانِقِ

وكما اثنى على الثرى ، اثنى على الحصى - وما احسب الا ان

الأندلسية رحمها الله ، نظرت الى هذا البيت حيث قالت في وصف الوادي :-

يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْسُسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النَظِيمِ

والبيت جيد والتوليد في الشعر مذهب متلئب ، يأخذ

الاخير عن الاول وكل اولئك صوب الحجاج كما قال ابو تمام .

سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلْبُلِيَّ مَلِيحَةً

على كاذبٍ من وَعَدِهَا ضَوْءٌ صَادِقٌ

الى آخر ما قال ، وانما اوردنا هذه الايات لمكان وصف الحصى والثرى

وحياة العراء والهواء الطلق فيها .

هذا

ولابى الطيب بعد مواضع اُطالَ فيهن وَصَفَ الطَّبِيعَةَ بَعْضَ

الطول ورُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ اقْتِرَاحٍ مِنْ مَمْدُوحِيهِ ، عَلَى أَنَّهُ نَمَّ يَخْرُجُ عَنْ

مَذْهَبِهِ مِنْ جَعْلٍ كُلِّ ذَلِكَ طَرَفًا مِنْ حَيَوِيَّتِهِ هُوَ وَحَرَكَتِهِ الدَّائِبَةِ ، وَإِحْسَاسِهِ

الْقَوِيَّ بِتَجَارِبِ مَا شَاهَدَ وَانْطَبَعَ فِي فَوَادِهِ وَدَفَعَهُ إِلَى التَّغَنِّيِّ وَالْبَيَانِ .

من ذلك أبياته في البحيرة التي جعلها خاتمة مدحه لعلي بن ابراهيم

التنوخي وفيها قوله :

سُغُورٌ دَفِيٌّ وَمَاؤُهَا شَبِيبٌ

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرَكَ الْبَحِيرَةَ وَالـ

تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَطَمٌ

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفَحُولِ مَزِيدُهُ

فَرَسَانٌ بُلُقٌ تَخُونُهَا اللَّجْمُ

وَالطُّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسِبُهَا

كَأَنَّهَا وَالرِّيحَ تَضْرِبُهَا
كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
نَاعِمَةٌ الْجِسْمِ لَاعِظَامِ لَهَا
يُبْقَرُ عَنْهُمْ بَطْنُهَا أَبَدًا
تَغْتَتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا
فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مَطْوِقَةٌ
يَشِينُهَا جَرِيئُهَا عَلَى بَلَدٍ
إلى آخر ما قال

والايات في جملتها جيدة • وفي البيت الاول رضا بالدَّفءِ وحُبٌ
له • ووازن بين هذا وقوله :-

وَقَدْ نَدَفَ الصَّنْبُرُ فِي طَرْقِهَا الْعُطْبَا

وقوله :

يَقْمِصْنَ فِي مَثَلِ السُّدى مِنْ بَارِدٍ
يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنًا كَالْخَصِيَانِ

وقوله :-

يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ

والبيت الثاني فيه الاحساس بِقُوَّةِ المَوْجِ وازيادته وقد جاءت
هذه الصورة أكثر وضوحا في قوله :-

وَاحْذَرَهُ إِذَا كَانَ مَزِيدًا

وفي قوله :-

وَمَوْجُ الْمَنَايا حَوْلَهَا مِتْلَاطِمٌ

وقونه « والطَّير فوق الحباب » أثبت فيه انطباع صورتين ، الطَّير
والامواج وأحسب ان اهتمامه بتشبيه الموج بالخيال وخرسانها اضاع عليه
اكمال ما بدأ فيه من أمر صورة الطَّير •

وصورة تشبيه الموج بالخيال اوضح في بيت التشبيه الذي جاء به في الميمنة
ذات الهاء الساكنة في مدح سيف الدولة :-

وَأَحْسَنُ مَنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ كُلِّهِ
حَيْلٌ بَرَقَ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِلُهُ
عَلَيْهَا رِيضٌ لَمْ تَحْكَمْ سَحَابَةٌ

وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تُغْنِ حَمَائِلُهُ
وَفَوْقَ حَوَاشِي كَلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ

مِنَ الدَّرِّ سِطٌّ لَمْ يُثَبِّتْ نَاضِلُهُ
نَرَى حَيَّوَانَ الْبَرِّ مُنْطَلِحًا بِهِ

يُحَارِبُ ضِدُّ ضِدِّهِ وَيُسَالِيهِ
إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّهُ

تَجَوَّلَ مَذَاكِيهِ وَتَدَايَ ضَرَاغِيهِ

الشاهد قوله « تجوَّل مَذَاكِيهِ » - وغير خاف ان هذه الصورة أشبه
بامواج بُحَيْرَةٍ نَهَبَ عَيْهَا الرِّيحُ مِنْهَا بِأَمْوَاجِ الْبَحْرِ دَى التَّبَجِّعِ الْغُطْمِطِ
وقوله :-

كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَسْرٌ حَفَّ بِهِ مِنْ جَانِبَيْهَا ظَمٌّ

فيه ما قدمنا من قُوَّةِ شُعُورِهِ بِضَوْءِ الْقَسْرِ وَبِهَاءِ اشِعَاعِهِ • ثم أحسبه
نظر فيه الى قول ابى تمام :

تَرَى نَهَاراً مُشْرِباً قَدْ نَمَاهُ

زَهَرُ الرُّبَا فَكأنما هو مقسّر

وأحسب ان مقال اندرو مازفيل Agreen Shade فيه صِبْغٌ من
ظلال معنى أبى نسام إذ لا يكون الظل أخضر إلا اذا كان عليه إشعاع من
خضرة الورق .

وعجّز قوله :-

نَاعِةُ الْجِسْمِ الْأَعْظَامُ لَهَا لَهَا بَنَاتٌ وَمَالُهَا رَحِمٌ
مع ما فيه من تصوير حيوان الماء دون صدره - بن يوشكت صدر
صدره ان يكون هو لب البيت « ناعية الجسم » لما فيه من قوة الاحساس
بين مس ماء البحيرة وهي ساكنة وقوله :-

تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا وَجَدَّتِ الْأَرْضُ حَوْلَهَا الدِّيمَ
حي الصورة ، مشرق بالضوء والنسيم ورنات موسيقا الطبيعة .
وقوله :-

فِي كَسَاوِيَةٍ مَطْوِئَةٍ جَرَّدَتْ عَنْهَا غَشَاؤُهَا الْأَدَمَ
كأنه مأخوذ من قول امرئ القيس :-

وَعَيْنٌ كَمَرَاةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُهَا مَحْجَرُهَا مِنَ النَّصِيفِ الْمُتَقَبِّ
وهو جيد في التشبيه . الا ان الصورة التي مرت في قوله ، كأنها في
نيرها فسر « اوضح وأجود »
ثم قوله :-

نَسِينَهَا جَرَيْنَهَا عَلَى بَلَدٍ يَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَزَمُ
تسنة لما كان ابتداء به ووصف البحيرة من قوله :-

لولاك لم أترك البَحِيرَةَ وال غورٌ دَفِيءٌ وماؤُها شَبِمْ

وهو في جملته قريب من قوله في ما بعد ، عندما رأى شعب بوان

أَعَن هذا يُسَارُّ إلى الضعان

ولا يَخْفَى ان التعبير هنا أَنْضَجٌ وأجود . على أن المعنى الذي أراده

في الميمية هو عَيْنُ المعنى الذي استطاع إيضاحه وتبَيِّينه ههنا - وهو

ضرورة مغادرة الخفض والطيبات من أجل الحَرْب ذات الشدائد ، ما

لا يجد المرء منه بُدًّا في كثير من الاحيان .

واحسب ان هذا المعنى عينه هو الذي أجمله وجاءَ به على سبيل الحكمة

في قوله :-

ومُرَادُ النّفوسِ أَصْغَرُ من أَن تَتَعَادَى فِيهِ وَأَن تَتَفَانَى

غَيْرَ أَنَّ الْفَتَى يَلْقَى الْمَنَايَا كَالْحَاتِ وَلَا يَلْقَى الْهَوَا

والادعاء والقزم من سَعْدِن الهوان وضريته بلا ريب .

هذا ومن ذلك ايضا لاميته الارجوزة ، التي وصف بها الصيد مع عضد

الدولة ومطلعها :-

ما أَجْدَرُ الْايامِ وَالليالى .

ووزنها من السريع « مستفعلن مفعولن » وان شئت عددته من الرجز

دخله القطع - مُسْتَفْعِلٌ وَكَأَنَّ من أَبَى هَذَا كِرَامَ أَن يَصَارَ

بشيءٍ أصله وتد الى سَبَبٍ كل منهما أصل في نظام العروض وفي هذا

نظر . والأراجيز المشطورة كأنها أدنى الى النثر من القصيد المحكم ، واحسب

هذه الكسة من أبى الطيب لو قد كانت في أسوب قصيده المحكم كان

مكانها من شعره أعلى وأفضل

ومع ذلك فهي فريدة حقا في بابها لما اشتملت عليه من ضروب التأمل والنظر الدقيق والتجارب السريعات المتلاحقات مع سلاسةٍ وانفاسٍ مَرَحٍ وفكاهة .

بدأ بمقدمة قصيرة تغنى فيها بشيء من الفخر اولا :-

ما أجدر الايام واليالي بأن تقول ما لله ومالي
لا أن يكون هكذا مقالي فتىً بنيـران الحروب صالي
وهذا كما ترى فيه معنى ضيق نفسه بما لُزَّ اليه من صراع .

منها شرابي وبها اغتسالي لا تَخْطُرُ الفحشاء لي ببال
وأحسب نفى الفحشاء عن نفسه دعاء اليه قوله «وبها اغتسالي» في قافية
الشر الذي قبله . فهذا من باب تداعى المعانى كما ترى . حتى اذا قال :
وكيف لا وانما إدلالي بفارس المجروح والشـسال
أخذ في مدح عضد الدولة مختصرا ذلك فذكر شجاعته وانتصاره على
الاعداء .

حتى اتقت بالفرِّ والاجفال فهالكٌ وطائع وجال
ثم أخذ من بعد في التماس اللذات الشريفة لنفسه بالصيِّد وهو
نزهة الملوك .

سارَ لصيِّد الوحش في الجبال وفي رقاق الارض والرمال
على دماء الانس والاوصال

وهذه صورة فظيعة . وزعم ابن بطوطة أنه لما كان بالهند ذهب الى وليمة
عند أحد الامراء ، فأصاب حافِرٌ فرسه بعُصٍّ أوصل القتلى عند
الباب فتأمل .

مُنْفَرِدٍ الْمُهْرَ عَنِ الرَّعَالِ

ثم أخذ يصف سير الخيل الى الصيد في تدبير محكم •

ما يتحركن سوى انسلال فهن يُضْرَبْنَ عَلَى التَّصْهِالِ
كلَّ عِلِيلٍ فَوْقَهَا مَخْتَال يُمْسِكُ فَاهُ خَشْيَةَ السَّعَالِ

وهذا بلا ريب أخذه من قول رؤية يصف الصائد حيث اختفى ينتظر ورود الوحش :-

فَبَاتَ وَالتَّفْسُ مِنَ الْحَرِصِ الْمَشَقِّ

فِي الزَّرَبِ لَوْ يَمْضُغُ شَرِيًّا مَا بَصَقَ

أي من حرصه الشديد ألا يسمع الوحش فينفر كان في زربه وهو مخبؤه لو مضغ حنظلا - والشري هو الحنظل وهو أمره الاشياء - ما بصق •

وليت شعري عن رؤية كيف غفل عن صَوْتِ مضغ الحنظل نفسه ولعله ان يعتذر معتذر له بأنَّ لَوْ تفيد عدم الوقوع اذ هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره •

يُمْسِكُ فَاهُ خَشْيَةَ السَّعَالِ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى الزَّوَالِ
ثم أخذ بعُد في صفة صحراء الأرض وحيوانها وما ركوعها به الامير وصحبه من دُمُورِيَّة واصطياد •

سَقِيًّا لَدَشْتِ الْأَرْضِ الطَّوَالِ

بَيْنَ الْمَرْجِ الْفَيْحِ وَالْأَغْيَالِ

هذه هي الصورة الكبيرة العامة - صحراء واسعة ممتدة بعضها مروج وبعضها غاب •

دَانِي الْخَنَائِصِ مِنَ الْأَشْبَالِ
مُسْتَشْرِفِ الدُّثْبِ عَلَى الْغَزَالِ
مُجْتَمِعِ الْأَضْدَادِ وَالْأَشْكَالِ

الخنائص صغار الخنازير ... والمكان كما ترى أشبه شيء بالغابات
سيحية التي تجعل الآن ملاجئ نادر الوحش في أواسط أفريقية مثل
نيجيريا وجنوب السودان وغير ذلك من البلاد :

كَأَنَّ فَنَاءَ خُسْرٍ ذَا الْأَفْضَالِ
خَافَ عَلَيْهَا عَوَزَ الْكَمَالِ
فَجَاءَهَا بِالْفَيْسِلِ وَالْفَيْسَالِ

اذ لم يكن دشت الارزن نفسه مكان - فيلة - ثم هذه فيلة من
سور المروض المقاتل ، فهي كالخيل ليست من الوحش ولكن امتداد
بشر .

ثم اخذ أبو الطيب يصف ضروب الوحوش فافتن في ذلك أي
سدى مثل قوله في وصف الياثل وقرونهن الطوال الثقال :

وَلِدْنٌ نَحَتْ أَثْقَلَ الْأَحْمَالِ
إِذَا تَلَفَّتْنَ إِلَى الْأَضْلَالِ
أَرَيْنَهُنَّ أَشْنَعَ الْأَمْشَالِ
كَأَنَّمَا خُلِقْنَ لِلْأَذْلَالِ
زِيَادَةً فِي سُبَّةِ الْجَهَالِ

لان قرونها طوال ثقال بلا جدوى فهي مسا كاته لم يخلق إلا لان
سب به من يسب فيقال هذا ذو قرون إذا كانت زوجته تخونه .

والعُضْوُ ليس نافعا في الحال

لسائر الجِسْمِ من الخبال

ثم اخذ في صِفَة هذه اللَّحَى المضحكات ، وأَنَّهَا ليست لها سِبَال ،
جَمَعَ فادر :-

وَأَوْفَتْ الْقُدْرُ من الأَوْعَالِ مَثَرُ تَكْدِيَاتٍ بِقِسْيٍ الضَّالِّ

يعنى قرونها شبيها بقسي الضال وهو ضارب من السِّدْرِ مستقيم
العصون ولعسري إن القدر قرونها انفسها ما كانت تُجْعَلُ افواسا فيكنَّ

في ما ذكروا شديداً النزاع :

لَهَا لِحَى سَوْدٌ بلا سِبَالِ تَصْنَحُ لِلأَضْحَالِ لا الإِجْلَالِ

ثم اخذ في صِفَة هذه اللَّحَى المضحكات ، وأَنَّهَا ليست لها سِبَال ،
بدليل قوله في هجائه كافورا وصحبه :

أَغَايَةِ الدِّينِ أَنْ تُحَقِّقُوا شَوَارِبَكُمْ ...

الاييات

وانها تُضَخِّخُ بِالابْوَالِ والزبل ... وتَيِّتَ شعري عن أبى الطيب
كيف كان يقول لو علم أن بَعْضَ الناس هكذا يفعلون •

كَثْرُ أَثِيثٍ نَبَتْهَا مِثْقَالٌ لَمْ تُغْنِدَ بِالْمِسْكِ وَلَا التَّغْوَالِ
تَرْضَى من الأَدَهَانِ بِالْأَبْوَالِ ومن ذَكِيِّ السِّسْكِ بالدُّمَالِ
لو سُرِّحَتْ في عَارِضِ مُحْتَالٍ لَعَدَّهَا من شَبَكَاتِ المَالِ
وغير المال من أعراض هذه الدنيا الزائلة - ولا زالت هذه التجارة بين

البشر ذات رواج •

ثم أخذ يصف المقتلة الرهيبة التي تلت لتلك الوحش اللاتبي كن قبل
تسبب آفات •

بعد اودعتها عتل الرجال في كل كبد كبدى نصال

فهن يهوين من القلال •

أي رؤوس الجبال •••••

مقلوبة الأظلاف والإرقال

اذ صرن جنائز بعد نبض الحياة ••

يرقلن في الجوى على المحال

أي على فقار الظهر •••

في طرق سريعة الإيصال

لا يتشككن من الكلال

ولا يحاذرن من الضلال

يا للأسف •••••

ثم طفر خياله فذكر جزيرة العرب : حيث بسطة التي جابتها

كئبه جوب الرداء •

جابت بسطة جوب الرداء بين النعام وبئسن المها

فخاف على وحشها ووحش نظيراتها ذوات النعام والمها والضباب

والاورال من بأس الأمير أن يصيبها مثل ما أصاب الفدر

لا يائل بدشت الأرزن :

نوحش نجد منه في بلكال يخفن في سسمى وفي فيال

سسمى جبل طيء وقيال لبنى عامر

و فر الضباب وألورال والخاصبات الربد والرمال

والخاصباتُ النعامِ والرئالُ أولادهن جَمْعُ رَأٍ
الطبي والخنساءِ والذئبالِ يَسْمَعُنَ من أَخْبَارِهِ الْأَزْوَالِ
أي العجيبة .

ما يَبْعَثُ الخُرْسَ على السُّؤالِ
فَحَوْلُهَا والعُوذُ والمَتَالِي تودُّ لَو يُتَحَفِّها بِوَالي
يَرَكِبُهَا بِالْخَطَمِ والرَّحَالِ

أي فَتَصِيرُ أَلِيفَةً مُذْعِنَةً كَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعْزَى
يَتَوَمَّنِهَا مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَالِ

وَيَخْمُسُ الْعُشْبَ وَلَا تَبَالِي

أي يَأْخُذُ مِنْهَا خُمْسَ الْعُشْبِ فَيَجْعَلُهُ مِنْ نَصِيبِ غَيْرِهَا مِمَّنْ تَأْكُلُفَهُ
ابْنُ آدَمَ مِنْ قَبْلِ

وَفِي الْوَحْشِ مِنْ ضَبَابٍ وَأَوْرَالٍ وَبَعْضِ الْغَزَلَانِ مَرَاكِبُ لِلْجِنِّ فَلَابُدُّ
مِنْ قَهْرِ الْجِنِّ -

فَأَكْسَلَ أَبُو الطَّيِّبِ طَفْرَةَ خَيَالِهِ الْبَدِيعَةَ بِقَوْلِهِ :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِ

وَهُنَّ نِسَاءُ الْغِيلَانِ ، ضَرَبَ مِنَ الْجِنِّ . وَقَالُوا مِنْهُنَّ نِسَاءٌ صَدَقَ ،
وَإِشَارَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَبُو الْعَلَاءِ فِي رِسَالَةِ الْغُرَرَانِ حَيْثُ ذَكَرَ حَدِيثَ
تَأْبِطُ شَرَا وَأَيَّاتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَنَا الَّذِي نَكَّحَ الْغِيلَانَ فِي بَلَدِي

مَا طَلَّ فِيهِ سَمَاكِيٌّ وَلَا جَادَا

بَحِيْثٌ لَا يَعْصِيْتُ الْغَادِي عَمَايَتَهُ
وَلَا الظَّالِمُ بِهِ يَبْغِي تَهْبِئَادَا
وَقَدْ لَهَوْتُ بِمِصْقُولٍ عَوَارِضَهَا
بِكُرٍّ تَنَازَعْنِي كَأْسًا وَعَنْقَادَا
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَأَعْقَبَهُ
عَصْرُ الْمَتْسِبِ فَقُتِلَ فِي صَالِحٍ بَادَا

ولا استبعد أن يكون أبو العلاء قد أخذ فكرة رسالة الغفران كلها من
سَطَحَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي هَذِهِ اللَّامِيَّةِ - كَالَّذِي تَقْدِمُ مِنْ طَنْبِ الْوَحْشِ أَنْ
يَجْعَلَ الْأَمِيرَ عَلَيْهَا وَآلِيَا وَادْعَانَهَا لِتُرَكَّبَ ثُمَّ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ بَعْدَ مِنْ
صِفَةِ مَطَارِدَةِ السَّعَالِيِّ عَلَى ظَهْوَرِ الْإِبْلِ فِي اللَّيَالِي غَيْرِ الْمُقَرَّاتِ •

لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِ
فِي الظُّلَمِ الْغَائِبَةِ الْهَلَالِ
عَلَى ظَهْوَرِ الْإِبْلِ الْأُبَّالِ

أي الطويلة الصبر على العطش •

فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الْآمَالِ
فَلَمْ تَدَّعْ فِيهَا سِوَى الْمَحَالِ
فِي لَامَكَانٍ عِنْدَ لَا مَنَالِ

وَفِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ شَوَاهِدُ قَوِيَّةٌ مِنْ مَعْنَى انْتِفَاعِ أَبِي الْعَلَاءِ بِأَخِيْلَةَ هَذِهِ
بِجُوزَةٍ - مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي نَعْتِهِ مُرَاكِبِ الْجَنِّ عَلَى لِسَانِ أَبِي هَدْرَشٍ :

حَسْنَا فِي الْجَنِّحِ خَيْلٌ لَهَا أَجْنَحَةٌ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْأَنْبَسِ
بَنَقٌ تَسْبِقُ ابْصَارَكُمْ مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعَيْسِ

كأنه يعلق بهذا على قول أبي الطيب :

في الظُّلُم الغائبة الهلال على ظهور الإبل الأبل
كَأَنَّهُ كَوْنُ الإبل أَيْ بَلَاءٌ وحده لا يكفي . فينبغي ان تكون غريبة
الهيئة بَيْنَ النعام والإبل ، فهذا أشبه بالجن كما ترى . ولعله أخذ
قوله (بين نعام وعيس) من قول أبي الطيب :

بَيْنَ النعام وبين المها

ومع ان المراد بَيْنَ هنا التوسط ، لا يخفى ان صورة ناقة أبي
الطيب بَيْنَ هذين الصنفين قد تسح الخيال شَكْلًا أشبه بما نعته أبو
العلاء وهذا بَعْدُ باب ما يطول فيه مجال الاستقصاء فنكتفي
منه بهذا القدر ان شاء الله .

هذا واختتم أبو الطيب لاميته بقوله :-

وربَّ قبح وحلى ثقالِ أَحْسَنُ منها الحُسْنُ في المعطالِ
فَخَرَّ الفتى بالنفس والفعالِ من قبله بالعمِّ والاخوالِ
واحسبه جمع الاخوال لما فيه من معنى الام ، كأن مراده « بالام
وعشيرتها » ، وذلك لانه كان يسكنه ان يقول بالعم أو بالخال ، وليس
بجَيِّدٍ جَوْدَةً هذا والله اعلم .

وهذه المعاني بعد ، حُسْنُ المعطال والفخر بالنفس والفعال قديسة
عميقة في قلب ابي الطيب وقد مر بك قوله :-

أَغْنَاهُ حُسْنُ الجيد عن لبس الحلى
وعادة العرى عن التفضل

كأنه مَضَمَخٌ بِصَّنْدَلِ

هذا يقوله في غزال من ارجوزته « ومنزل ليس لنا بمنزل » وقوله
وعادة العرى عن التفضل « يستفاد منه أن النساء على زمانه كنَّ ربسا تزين
بعض هذا • وقوله من البائية :-

لَا بَرَزْنَ من الحِصَامِ مائِدةً أوراكن صَقِيلَاتِ العراقِيبِ
صريح في هذا المعنى •

وقوله :-

ابن من بعضه يَفُوقُ أبا الباحث والنَّجَلُ بَعْضُ من نجله
ربسا يَذْكُرُ الجدودَ لهم من نَفَرُوهُ وانْفَدُوا حِيلَهُ
وقوله :-

في الاجداد تغلبها جميعاً على الاولادِ اخلاقُ اللثامِ
يست بقائعٍ من كلِّ فَضْلٍ بأن أعزى الى جدِّ هُما
وهذه النهاية أعنى نهاية لاميته حيث قال :-

حَرِّ القَتْسِ بالنفس والفعال من قبله بالعم والاخوال
من سنخ ما ابتداء به اولا حيث قال :

ما أَجْدَرُ الايام والليالى
بأن تقول ماله ومالى
لا أنْ يكونَ هكذا مقالى
فتى بنيرانِ الحُرُوبِ صالى
منها شرابي وبها اغتسالى
لا تَخْطُرُ الفحشاءُ لى يبال

في هذه الأرجوزة من خفة الروح وغفوية الاداء وسخاء الطبع ما كأنه
مباين للمألوف من سخونة ابي الطيب وذكورة شخصيته وصرامتها . ولذلك
ما زعمنا أننا فيها بابها فريدة ، على ان جميع هؤلاء الصفات اللاتي هي
بهن فريدة مما اخترته عبقرية ابي الطيب في أغوارها دهرًا . وهو بعد
القائل :-

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْذُ الْمُسْتَعِيرُ أَسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيحَ الْعَطْبِ
رَمَاهُ الْكِنَاشِيُّ وَالْعَامِرِيُّ ، وَتَلَاهُ لِلتَّوَجُّهِ فِعْلُ الْعَرَبِ
كَلَا الرَّجْلَيْنِ اتَّكَلَى قَتْلَهُ فَأَيُّهُمَا غَلَّ حُرٌّ السَّلْبِ
وَأَيُّهُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنْبِ

فهذه من معدن

لو سُرَّحت في عارضٍ مُحْتَالٍ لعدَّها من شبكات المال
بين قضاة السوء والجُهَّال

والقائل :-

صَحِبْتُ فِي الْفُلُواتِ الْوَحْشَ مَغْتَرِبًا
حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي الْقُورُ وَالْأَكَم

ومحل الاستشهاد ههنا ان هذا البيت قاله في ميميته .

واحرَّ قلباه ممن قلبه شيم

وكأنما يأنس به إلى الْوَحْشِ من مجلس سيف الدولة . وقد ذكر ابن
هشام صاحب مغنى اللبيب واو الثمانية فنسب أمر التمسك بقضيتها الى
بعض ضُعفاء النحاة مثل ابن خالويه ، ويبدو لي أنه ما نص على ابن خالويه

ضَعِيفاً فِي النِّحَاةِ إِلَّا لَمَّا كَانَ مِنْ مَكَانِهِ فِي عِدَاوَةِ أَبِي الطَّيِّبِ وَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ
نَجَّاهُ بِمِفْتَاحٍ لَمَّا انْشَدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ ، قَالُوا فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

بِذَا كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحِجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ
يَعْنَى بِالْحَاسِدِ هَهُنَا جِيعَاةُ الْحَسَادِ كُلُّهُمْ ابْنُ خَالُوِيهِ وَأَبَا فِرَاسٍ
وَهَلُمَّ جَرَا

وَمِنْ هُنَا تَرَى وَجْهَ صَوَابِهِ إِذَا اسْتَقْرَبَ الْوَحْشَ بِالْقُورِ وَالْأَكْمَ دُونَ
هَؤُلَاءِ .

وَمَا أَبْعَدَ فِي هَذَا الَّذِي صَنَعَهُ عَنْ مَذْهَبِ الشَّنْفَرِيِّ حَيْثُ قَالَ :-

أَقْبِسُوا بَنِي أُمِّى صُدُورَ مَطِيكِمٍ
فَإِنِّى إِلَى قَوْمٍ سَوَاكُمْ لِأَمْيَلِ

وَلِ دُونِكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدَ عَمَلَسٍ
وَأَرْقَطَ زُهْلُولٍ وَعَرْفَاءُ جِيَالِ

هَمْ أَهْلُ لَا مَسْتَوْدَعِ السَّرِّ ذَائِعٍ
لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِىَ بِمَا جَرَّ يُخْذَلِ

وَقَالَ يَذْكُرُ بِأَسِّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي الْعَرَبِ وَالرُّومِ فِي لَامِيَّتِهِ « أَجَابَ
بِمَعْنَى وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ » :-

فَالْعَرَبُ مِنْهُ مَعَ الْكَدْرِىَّ طَائِرَةٌ

يَعْنَى الْقَطَا وَارْتِبَاطُهُ بِالْعَرَبِ وَارْضَهُمْ مَعْرُوفٌ وَقَدْ تَعْلَمُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ
بِحَبِّ اللَّامِيَةِ :-

كَأَنَّ غَايَا حَجَرَتِيهِ وَحَوْلَهُ

أَضَامِيْمٍ مِنْ سَفَرِ الْقِبَائِلِ رُحِّلِ

فهذا

والروم طائفة منه مع الحجل

والحجل شاملي المنزع وهو من حسان الطير أكبر من الحمام والقطا

وما الفرار الى الأجيال من أسد

تمشي النعام به في معقل الوعل

وكلا النعام والوعل فروران وما اراد بالنعام هنا إلا أعداء سيف الدولة

من العرب اذ اعتصموا منه بالجبال كما تصنع الوعول - ولعرفة ابي الطيب

بالصيد والصحراء يتردد ذكر الاسد والنعام والوعول والمه والغلان . لا

على سبيل التقليد والمحاكاة ، في شعره كثيرا - من ذات ما تقدم ومثل قوله :

فأتيت معتزماً ولا أسد ومضيت منهزماً ولا وعل

وفي الايات اللامية المتقدمة قوله :-

فكلما حملت عذراء عندهم فإنما حلت بالسبي والجسل

جاز الدروب الى ما خلف خرشنة « وهي من أرض الروم » وزال عنها

وذلك الروع لم يزل •

وكأن استغراب الروم وبنى عمهم الفرنجة للجسل ونسبتهم إياه الى

دار العرب والاسلام قد كان منذ ذلك الزمان وما أحسب أن احدا أبان عن

هذا المعنى كما صنع أبو الطيب ههنا - فهذا من باب ثباته على المحك الذي

لا ينكر مما نبه عليه ابن الأثير في المثل السائر •

وذكر أبو الطيب شعب بوان فقال :-

مغاني الشّعْب طيباً في المغاني

والنصّب هو الوجه والتقدير تزويد طيباً أو تطيب طيباً أو طيباً لها

بمنزلة الرئیس مع من الزمان

ولكنّ الفتى العربىّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
وكأنه هنا يلوم نفسه على عظم ارتياحه لهذا المكان وفرحه به

وفي القصيدة حنينٌ "إلى بلاد العرب كأنه يحس في طياته نوعاً من الشعور
الخفى بقرب المنية :

ملاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سَلِيانٌ لَسَارَ بِتَرْجَمَانٍ

هنا أبو الطيب مباعد نفسه عن بهجة منظر الشعب ومرح مراه مخالطه
نَوْعٌ من تَرَدُّدٍ بِدَاوَةِ وَاسْتِحْيَاءِهَا ثم إذا به يدْعُوهُ الْمَنْظَرُ الْكَرِيمُ
إِلَى أَنْ يَنْسَجِمَ مَعَهُ وَيَتَمَتَّعَ بِهِ - فَكُنِيَ عَنْ نَفْسِهِ بِحِصَانِهِ ، وَأُورِدَ ذَلِكَ
مَوْرِدَ الْجَمَاعَةِ ، لَمَّا يَنَاسِبُ ذَلِكَ رُوحَ التَّبَاعُدِ وَالتَّرَدُّدِ وَالِاسْتِحْيَاءِ
ونذكر هنا مقال ابن رثيق أن أبا الطيب كان مسافراً إلى الخيل
في الباب الذي يقع فيه ذِكْرُ الْأَبْلِ وَالنَّسِيبِ وَيَسْتَعِزُّ فِيهِ بِعُضْوِ
الْمَوْلِدِينَ ذِكْرَ الْحَدَائِقِ « وَالنَّوَاوِيرِ الْبَلَدِيَّةِ » فَقَدْ جَمَعَ أَبُو الطَّيِّبِ
ذَلِكَ كُلَّهُ جَمِيعَهَا ههنا •

طَبَتْ قَرْسَانَا وَالْخَيْلَ حَتَّى
خَشِيتُ وَأَنْ كَرُمَنْ مِنْ الْحِرَانِ
وَأَنَا كَرَمْتُ لِأَنَّهَا عَرَبِيَّةٌ مِثْلُهُ ، وَكَعَرَبِيَّتِهِ كَانَتْ غَرِيبَةً - فَجَعَلَ الرَّمْزَ
وَالْكُنَايَةَ كَمَا قَدْ مَنَّا وَاضِحٌ

ثم اخذ جَسَالُ الشعب وقتته يغلبان عليه :
عَدَوْنَا تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ
على أعرافها مِثْلُ الْجَمَانِ

فِئْرَتُْ وَقْدَ حَجَبْنِ الشَّمْسِ عَنِ
 وَجِئْنِ مِنْ الضِيَاءِ بِمَا كَفَانِي
 وَنَسِيَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ مَفَاوِزَ بِلَادِ الْعَرَبِ وَكُلَّ قَعْرِ :
 عَلَيَّيْ مَرَاعِيْهِ وَزَادِيَّ رُبُّدُهُ
 وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي
 دَنَانِيْرًا تَقْرِدُ مِنَ الْبَنَانِ

ولا يَخْفَى أَنَّ الشَّاعِرَ ههنا انْجَمَ مع رَشَاقَةِ حَرَكَةِ الْغُصُونِ وَلُطْفِ
 اسْتِدَارَةِ الشَّعَاعِ وَتَحَرُّكِهِ عَلَى الثِّيَابِ وَهُوَ الْكَرِيمُ وَحِصَانُهُ الْكَرِيمُ كَلَاهِمَا
 سَائِرٌ وَمُنْتَشٍ بِهَذِهِ الْكَأْسِ الدِّهَاقِ مِنْ خَمْرِ الْحَيَاةِ :-

لَهَا ثَمَرٌ تَشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلَا أَوَانِي
 هَذَا الْبَيْتِ كَمَا تَرَى ذَرْوَةَ ، مِنْ حَيْثُ اتِّصَالُهُ بِمَعْنَى مَا قَبْلَهُ إِذْ فِيهِ قَدْ
 اخْتَفَى شُعُورُ الْعَرَبَةِ وَالْبَعْدُ كُلُّ الْإِخْفَاءِ . وَبَلَغَ الْإِفْتِتَانُ أَوَّجَهُ وَمِنْ
 حَيْثُ أَنَّهُ وَصَفَ حَيَّ دَقِيقٌ ، وَلَيْتَ شَعْرِي عَنْ أَنْدَرُو مَا قِيلَ حَيْثُ قَالَ :-

The nectarine and the curious Peach
 Into my hands themselves do reach.

هل نظر في قوله the curious Peach الى قول
 شاعرنا :-

غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ ؟

لَهَا ثَمَرٌ تَشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهُ بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلَا أَوَانِي
 تَأْمَلُ قَوْلَهُ :- وَقَفْنَ بِلَا أَوَانِي لِأَرِيبَ نَظَرِ أَبِي الطَّيِّبِ إِلَى قَوْلِ ابْنِ
 الرُّومِيِّ فِي الْعِنَبِ « كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْبُلُورِ » وَلَكِنْ هَذَا تَشْبِيهُ بَارِعٌ لَيْسَ إِلَّا
 لَا يَذْهَلُنَا بِالْحَيَوِيَّةِ وَصِدْقِ التَّجَرُّبَةِ كَمَا يَذْهَلُنَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ •

وأمواء" تَصِلُ بها حصاهـا

صَلِيلَ الْحَلَى فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

وهذا البيت فيه الرؤية وسماع الصوت مع استحسان جمال الحصى عليه رقاق الماء وحكاية جميع ذلك صوتاً ومنظراً من طريق الجناس في الصادات والتشبيه في قوله صليل الحلى في أيدي الغواني *

والمعنى قديم في نفس أبي الطيب بآية قوله :

شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جِينِهِ

وروض ترى للساء فيه خريرا

وقوله :

بلاد" اذا زارَ الحسانَ بغيرها حصى ثربها ثَقَبْنَهُ للسَّخَاقِ

ولكنه ههنا أحكمه وبلغ به غاية الجودة *

وقد اخفت الاندلسية سرققتها منه حيث قالت :

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ

سَقَاهُ مِثْءَاعْفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ

نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا

حُنُوءَ الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الْقَطِيمِ

وَأَسْمَقَانَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالَا

أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّيِّدِ

يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعِذَارَى

فَتَلْمِسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النِّظِيمِ

والايات في جُمْلَتِها متأثرة بأيات الشَّعْب ، صِيفَةُ الظِّلِّ
والخَفَضِ والنَّعْمَةِ ثم بَيَّتَ الحَصَى يَنْظُرُ مباشرةً الى بَيْتِ ابي
الطيب ويُخْفِي هذا النظر بهذه الصورة الحَسَنَةِ من تَوَهُّمِ الحِساءِ
أَن عَقْدَها انْقَصَمَ فتلمسه وما هُوَ الا حِصْبَاءُ ذَلِكَ المَكَانَ

وهذا الذي أَخَفَتْ به سِرْقَتِها من بَيْتِ مَغَانِي الشَّعْبِ إِنما اخذنه من
بيت « تَذَكَّرْتُ ما بين العَذِيبِ وبارق » وقد سبق لنا التَّنبِيهَ على ذلك .

وايات الاندلسية - بعد جيدة في بابها ذات تَجَرُّبَةٍ مُسْتَقْلَلَةٍ
تَحْمِيلِ طابَعِ الأَنْدَلُسِ وما كَانَ عليه ظُرْفَاءُ أَهْلِها من حُبِّ الاسْتِماعِ
بالنَّشْزُهِةِ في الأَوْدِيَةِ ... وفي شِعْرِ ابن زِيدُونَ شَوَاهِدُ حَسَنَةٍ مِمَّا
يُصَدِّقُ ذَلِكَ . وههنا يَنْبَغُ الى أَنها لا تَذَكَّرُ من الفاكهة سِيَّئًا ، وإنما
تَذَكَّرُ الدَّوْحَ والظِّلَّ ، فهذا مع حلاوة الروح التي في هذه الايات مما
يجعلنا نَقْطَعُ باسْتِقْلالٍ تَجَرُّبَتِها .

هذا ...

وبَيَّتَ :

صَلِيلُ الحَلَى فِي اَيْدِي الغَوَانِي

كَأَنَّهُ انْصَرَفَ عَمَّا افْتَنَّنَ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْ دُعَاءِ الشَّارِ والأَشْرِبَةِ
الوَاقِعَاتِ بِلَا اِوَانٍ لَهُ .

وَسَبَّحَ خَيَالَهُ مَعَ هَذِهِ الانْصِرَافَةِ الى ذِكْرِ الشَّامِ ،

وَلَوْ كَانَتْ دِمَشْقُ ثَنَى عِرْنَانِي

لَبَيِّقُ الثَّرَدِ صَيْنِي الْجَفَانِ

يَلْنَجُوجِي مَا رُفِعَتْ لُصَيْفِي

بِهِ النِّيرانِ نَدَى الدَّخْسَانِ

أي كريم عربي ... وفي هذا البيت روح تَرْتَم خفى بمعنى قوله من قبل :

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبٌ الوجه واليد واللسان
ثم اتبه مرة أخرى ، وهو بُعد منتبه لم ينقصم عن ذلك الى شعب
بوان :

يحل به على قلب شجاع ويثرحل منه قلب جبان

الضمير في به « يَعُود على الشعب لان سياق الحديث عنه ، يدلك
على ذلك قوله « ولو كانت دمشق » أي لو كانت هذه الرياض غوطة دمشق
لكان وكان وفي لو ههنا معنى من معانى التمنى البعيد ... ليت ان
غوطة دمشق كانت هكذا أَمْنًا وَخَفَظًا وَإِذْنًا ما كُنْتُ اغادرها وأُضطرر
لأن اكون غريب الوجه واليد واللسان ودِمَشْقُ ههنا انما هي
رمز للشام كله ، ولما كان فيه من عَهْدِ سيف الدولة وحلب والعراق
جميعا

ولكنّ هذه الرياض شعب بوان ، وقد اقدمت عليه وأنا متهيّب
وهأنذا أعجب به كل الاعجاب

وقد نعلم أن ابا الطيب في ظاهر الامر أقبل على الشعب بقلب جبان
ورحل عنه بقلب شجاع ولكنّ تعبيره الذي ذكر أصدّق وقد نصّ
عليه نصّا في ما بعد :

مَنَازِلُ لم يَزَلْ منها خيالٌ يُشَيِّعُنِي الى الثوبنذجان

أي منازل الشام والشعب جميعا ومثل هذا المزج عند ابي
الطيب كثير ، وشاهدُ الحال يدلّ على أنّه تذكّر مَنَازِلَ دمشق وهو

بأرض فارس ، وسياق قوله يشعر بأنه يتحدث عن الشعب وجسالة وبقاء ذلك
في نفسه البقاء الطويل .

إذا غنى الحمامُ الورقُ فيها أجابته أغانيُ القيّانِ
ومن بالشَّعبِ أَحْوَجُ من حمامٍ إذا غنى وثَّاحٌ إلى البيانِ
ولا ارى « من بالشَّعب » اراد به أبو الطيب أحداً غير نفسه وشنان ما
بين قوله وهنا وقوله من قبل في البحيرة :

يشبُّها جرَّيَّها على بلدٍ تشينه الادعياء والقزَمُ
على أن ظاهر قوله يستفاد منه أنَّه غنى عَجْمَةٌ من كانوا بالشَّعبِ
ورُوحُ الأَداءِ لا يَحْتَمِلُ هذا التَّأويلَ . وقوله :

وقد يتقاربُ الوصفانِ جِدًّا وموصوفاهما متباعدان
يُقَوِّى ما نذهب إليه هنا ، إذ الحمام يُغَنِّي طرباً ، وهو كذلك
يصنع ، بهذا النشيد الفذَّ الخالد :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانِ حِصَانِي أَعْنُ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعْمَانِ
أَبُوكُم آدَمُ سَنَ المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
واذ حصان ابى الطيب فيه معنى الكناية عن نفسه فإنه لم يغادر الشعب
الا كارها كما ترى .

وأَنس ابى الطيب الى حصانه ومودته له لا يخفى . وهذا الَّذي جعل
ابن رشيق ينص على ما نص عليه حيث قال :-

وقد ذكر ابو الطيب الخَيْلَ في كثيرٍ من شعره وكان يُؤَثِّرُها على الإبل
لما يَقُومُ في نفسه من التَّهْيَبِ بِذِكْرِ الخيلِ وتَعَاطِيِ النِّجَاعَةِ فَقَالَ يَذْكُرُ
قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذُنِيْ أَغْرَى كَأَنَّهُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلْمَاءُ أُذُنِيْ عِنَانِهِ
وَأَصْرَعَ أَيْ الْوَحْشِ قَفْقَيْتَهُ بِهِ
وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ
إِذَا لَمْ تَشَاهِدْ غَيْرَ حَسَنٍ شَيَانِهَا
أَرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسُ أَيَّانَ تَغْرُبُ
مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكَبٍ
تَجِيءُ عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
فِيَطْفَعِي وَأُثْرِيهِ مَرَارًا فِيلْعَبُ
وَأَنْزَلَ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ
وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مِنْ لَا يَجْرِبُ
وَأَعْضَائُهَا فَالْحَسَنُ عَنْكَ مَغِيبُ

واستشهاد ابن رشيق بهذه الايات جيد ، لما فيها من صورة الوصف
مع صدق التجارب وقوة الروح المفصح بها . والبيتان الاولان شديدا حيوية
الانطباع والاخيران ذروة من حكمة القول وبيتا مغانى الشعب :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَانَ حِصَانِي اَعْنِ هَذَا يَسَارُ بِي الطَّعَانِ
أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَّ الْمَعَاصِي وَعَلِمَكُمْ مَفَارِقَةَ الْجَنَانِ

فيها معنى هذه الصداقة التي ذكرها ابو الطيب في البائية وفيها الحكمة
ذات العمق الفلسفي التي بحرها جعل يعرف ابو العلاء المعري من بعد .
وفيها بُعد الروح الفكيه الساخر الذي احسننا من انفاسه القويات في
الارجوزة .

ما أَجْدَرُ الْإِيَّامَ وَاللَّيَالِي

وقصيدة شعب بوان من فرائد الشعر - لا أحسب ذلك في شعر ابي
الطيب وحده ولا بالنسبة الى شعر العرب وحدهم
وفي القصيدة بُعد من مزايا الشاعر وإحسانه سوى وصف الطبيعة
ما لَا يَتَّسَعُ لَهُ نِطَاقُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ...

ويستوقفني بعد قوله :-

حَمَى أَطْرَافَ فَارَسِ شَمْرَى

يَحْضُرُ عَلَى التَّبَاقِي بِالتَّفَانِي

بَضْرَبَ هَاجَ أَطْرَابِ الثَّمَايَا

سِوَى ضَرْبِ الْمُثَالِثِ وَالْمَثَانِي

فهذا كَأَنَّهُ فِيهِ صَدَىٍّ مِنْ أَغَانِي شِعْبِ بَوَانِ حَسَائِثِهِ وَقِيَانِهِ وَشَاعِرِهِ
الغريب :

كَأَنَّ دَمَ الْجَمَاجِمِ فِي الْعُنَاصِي كَسَا الْبُلْدَانَ رِيَشَ الْحَيْقَطَانِ

مِسْكِينِ الْحَيْقَطَانِ لو كان أبو الطيب رآه في الشَّعْبِ مَا
كَانَ خَلَطَ جَمَالَهُ بِصُورَةِ الْجَمَاجِمِ وَالْعُنَاصِي وَالدَّمَاءِ .. وَلَقَدْ تَذَكَّرَ خَطُّهُ
فُظَاعَةَ مَنَظَرِ الْقَتْلِ وَالدَّمَاءِ بِالرِّيْحَانِ وَالشَّقَائِقِ حَيْثُ قَالَ :-

وَلَا تَرِدُ الْغُدْرَانُ إِلَّا وَمَاؤُهَا مِنْ الدَّمِ كَالرِّيْحَانِ تَحْتِ الشَّقَائِقِ

وقريب منه قوله في « النارنج والاغصان » .

وههنا رِيَشُ الْحَيْقَطَانِ

هل كان أبو الطيب عَامِداً فِي جَمِيعِ هَذَا إِلَى مُعَارَضَةِ مَذَاهِبِ ضَعْفَاءِ
شُعْرَاءِ زَمَانِهِ مِنْ وَصْفِهِمُ النُّوَاوِيرَ الْبَلَدِيَّةَ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ ابْنِ رَشِيقٍ وَمَا
بَسَجَرَاهَا مِنَ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانِ

..... الرَّاكِبُ الْخَيْلَ كَثُّهُ وَإِنْ كَانَ بِالنَّيْرَانِ غَيْرَ مَوْسِمِ

أَمْ يَا هَلْ تَرَى عَطْفَ أَبُو الطَّيِّبِ عَلَى الْحَيْقَطَانِ - وَهُوَ طَائِرٌ مَلِيحٌ دَاجِنٌ
مِمَّا يَتَأَلَّفُهُ النَّاسُ وَيَذْبَحُونَهُ وَيَنْتَقُونَ رِيَشَهُ ذَا الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ كَمَا يَصْنَعُونَ
بَرِيَشَ الدَّجَاجِ

يقول بشعب بوان حصاي أعن هذا يُسار الطعان
أبوكم آدم سَنَ المعاصي وعسكم مفارقة الجنان
رحم الله أبا الطيب فقد كان مُبْدِعاً مبرزاً في جَمِيع ما راض عليه
بيانه من ضروب القول فأجادَ وحسبنا بَعْدُ هذا القدر من
حديثه وحديث الطبيعة •

• والله الحمد اولا وأخيرا •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً
كثيراً •

عبدالله الطيب،

١٩٧٧-٣-٢٤

* * *

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : رضا الخطاط
التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٣٩ لسنة ١٩٧٧

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

دار الحرية للطباعة - بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغداد
١٩٦٦

دار المطباعة للطباعة

وزيد الناصر الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان

العدد ١٠٠ فله

U

505

13.1
UT